عزيز نيسين

المجانين الهاربون



« قصص »

ترجمة محمد مولود فاقي

الوطنية الجديدة

المجانين الهاربون

* المجانين الهاربون «قصص»
* تأليف: عزيز نيسين
* ترجمة: محمد مولود فاقي
* الطبعة الأولى ٢٠٠١

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٢٢٢٠٥
هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ ـ ٤٤١٨١٧٢
* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع
موافقة وزارة الإعلام رقم ٥٠٥٣٠٩

عزيز نيسين

المجانين الهاربون

« قصص »

ترجمة محمد مولود فاقي

عنوان الكتاب بالتركية
AZIZ NESIN
DELILER BOSANDI

المجانين الهاربون

كان راديو (أريسون توبوليس) يذيع الخبر التالي في نشرته المسائية:

«آلو.. آلو.. السادة المستمعون الكرام.. حسب ما وصلنا من أخبار فإن مجموعة كبيرة من المجانين يفوق عددهم الخمسين قد فروا من أحد مشافي الأمراض العقلية وانتشروا داخل المدينة.. وكما تقول الأخبار الواردة إلينا تباعاً فإن قوات الجيش والشرطة تحاول المستحيل للقبض على هؤلاء المجانين.. إلا أن كل محاولاتهم قد باءت بالفشل ولم يستطيعوا القبض على مجنون واحد.. ويعد المجانين الهاربون من أكثر المجانين شراسة وغلاظة.

وقد بدأت مناوشات شديدة بين المجانين الباقين في المشفى والذين كانوا يريدون الفرار مثل زملائهم.. وبين رجال البوليس والعسكر.

وسنحاول إذاعة كل ما يصلنا من أخبار عن الفارين منهم.. دان ن ن.. انتهت النشرة الإخبارية.. والآن ستستمعون إلى كونجرتو الثاني لـ (ليستز لا ماجور).. بالعزف على البيانو».

في بداية الأمر ظن المستمعون أن هذه النشرة الإخبارية ليست سوى دعاية لإحدى المنظفات.. وفي كل الأحوال.. ستعمد الإذاعة في نشرتها القادمة.. وبمفاجأة جميلة.. لربط هذا الخبر بدعاية لإحدى المنظفات. ولكننا سمعنا صوت المذيع قبل وقت في النشرة الإخبارية:

«آلو.. آلو.. السادة المستمعون الأكارم.. نأسف لقطع هذا البرنامج الموسيقي.. لنوافيكم بآخر المستجدات والأخبار التي وصلتنا عن المجانين الذين فروا من مشفى الأمراض العقلية.. فقد نجح أكثر من ثلاثمائة

مجنون آخر في الفرار من المشفى ونتيجة ارتفاع حدة المناوشات بين الضابطة من جهة والمجانين الذين يريدون مساعدة الباقين في المشفى.. فقد تم تحطيم الأبواب الثلاثة للمشفى.. وتمكن المجانين الفارون من أسر مدير المشفى وجميع الأطباء. ولجأت عناصر الإطفاء إلى رش المياه بقوة عن طريق الخراطيم فوق المجانين للحد من شراستهم. وبالمقابل يقوم المجانين بالرد عليهم بالبصاق في وجوههم.. والتبول على أجسادهم.

أما الخبر العاجل فيقول بأن قوات البوليس والجيش قد حوصرت تماماً وشلت».

بعد أن استمرت نشرة الأخبار مدة من الزمن هكذا وهي تتحدث عن المجرمين وفرارهم.. قال المذيع بأنهم سيوافون المستمعين بالأخبار أولاً بأول.

كانت أعصاب جماهير مدينة (أريسون تو بوليس) قد شدت تماماً أو كادت تتحطم.. لو كانت هذه دعاية لكانت الرذالة بعينها.

وكيف يكون ذلك وإذاعة الدولة تعطي أهمية وقيمة أكثر من اللازم للإعلان والتجارة الرخيصة.. وتسبب للمواطنين انفعالاً وهيجاناً وخوفاً بهذا الشكل..؟! أما إذا كان المجانين قد هربوا.. لا قدر الله.. فهذا يعني أن الأمر مخيف حقاً.. والذين لم يسمعوا نداء المذياع كانوا قد سمعوا الخبر من الذين سمعوه بآذانهم.. كان الجميع يتحدثون عن هذه الحادثة.. حتى في أوقات ما بعد منتصف الليل.. وبدأت الاتصالات الهاتفية الخارجية بين المدن تعمل بشكل كثيف. وبدأ المواطنون يتوجهون بأنفسهم إلى مخافر الشرطة والدوائر الرسمية ليتأكدوا من صحة هذا الخبر. أما الموظفون من الدرجة الرابعة والخامسة فلم يستطيعوا الإجابة عن الأسئلة الموجهة إليهم من قبل المواطنين.. لأنهم لا يعلمون شيئاً.. لدرجة أن الخوف كان قد لفهم لحماً ودماً وعصباً.. وصارت الأسئلة تطرح تصاعدياً

إلى المقامات العليا.. وجاء الخبر اليقين قبل منتصف الليل بوقت قصير.. حيث أكدت الأخبار الواردة من الجهات العليا أن الحادثة صحيحة.. وأن مجموعة كبيرة من المجانين قد فروا والباقين ما زالوا في المشفى يخوضون صراعاً طاحناً مع قوات الظابطة يريدون اللحاق بزملائهم الفارين.. ولكن من الواجب أن تقدم هذه الجهات تأمينات وضمانات للمواطنين.. بأن قوات الأمن في (أريسون توبوليس) ستقوم بإرجاع عقول هؤلاء المجانين إلى رؤوسهم وتهدئة الوضع في أقرب فرصة.

كان راديو الدولة في (أريسون توبوليس) قد بثَّ آخر خبر إلى الشعب في تلك الليلة جاء فيه:

«فر من مشفى الأمراض العقلية أكثر من نصف المرضى. وبعد خروج هؤلاء المجانين من المشفى.. لا يستطيع أحد أن يفرقهم عن باقي العقلاء في الخارج.. وقد جرت عدة حوادث خطيرة نتيجة ذلك حيث ألقي القبض على رئيس قوة الشرطة من قبل عشرة من عناصر البوليس وأودعوه المشفى موجوداً ظناً منهم أنه من المجانين. ومن بين الذين أدخلوا المشفى خطأً المدير الإداري للمشفى ورئيس البلدية.. وقد شعروا بهذا الخطأ عندما ألبسوهم قميص المجانين ووضعوهم تحت الدوش البارد.

كم من أناس ألقي القبض عليهم وأدخلوا المشفى من جراء الخطأ! فالأرقام والهويات غير معروفة حتى الآن.. والقوات الحكومية في صراع منقطع النظير مع المجانين دون كلل ولا ملل وبشجاعة كبيرة وبعد أن ضاع الفارق بين العقلاء والمجانين.. فقد شدد القضاء على التأني في هذه الانتفاضة الجنونية.. واستدعيت قوات أمنية إضافية من المحافظات المجاورة.. وستحاول الحكومة جاهدة القضاء على هذا التمرد حتى صباح الغد».

أكثر من نصف المواطنين لم يناموا في تلك الليلة.. وأول عمل قاموا به

هو شراء الصحف.. كانت الأخبار مخيفة بكل معنى الكلمة.. كانت قوات الشرطة والعسكر والجندرمة قد ملأت المشفى بالعقلاء على أنهم مجانين.. ولم يبق في المشفى مجنون واحد لأنهم كانوا قد هربوا جميعاً.. وبعد أن ركزوا وضعهم جيداً في الخارج.. عينوا مديراً جديداً للمشفى من العقلاء الموجودين فيه وكذلك عينوا قوات شرطة جديدة من بينهم حفاظاً على الأمن. وقرر المدير الجديد بالتعاون مع الشرطة الجديدة عدم السماح لأحد بالدخول إلى المشفى ولا الخروج منه.

نشرت إحدى الجرائد تحقيقاً أو ريبورتاجاً جرى بين محرر الجريدة والمدير الجديد للمشفى. كان الصحفي يسأل المدير الجديد:

ـ ألستم من الذين كنتم تقفون مع قوات الأمن البارحة حتى لا يفر المجانين؟

ـ نعم.

ـ هل تعرفون بأن الموجودين في الداخل هم من العقلاء؟

ـ أعرف ذلك.

ـ من الذي عينك مديراً هنا؟

ـ المجانين.

ـ إذاً كيف يكون ذلك.. ؟! إنك عاقل.. ولا تخلي سبيل العقلاء الموجودين داخل المشفى!

كان المدير قد أجاب على هذا السؤال بجواب قطعي وحاد:

ـ يا أخ.. الوظيفة.. هي الوظيفة.. هكذا..

أما معاون المدير الذي كان عاقلاً حتى البارحة فقد أجاب الصحفي:

ـ لست مؤهلاً لإعطاء أية بيانات على الإطلاق.

أما رئيس مفرزة الأمن:

ـ سأقول لك شيئاً.. بشرط ألا تكتب أقوالي ولا تنشرها في جريدتك.. ربما أطرد من وظيفتي. وبعد رجاء حار قال:

ـ أنا أعرف إن الذي وضعني رئيساً لمفرزة الأمن هنا هم المجانين.. نعم أعرف ذلك.. ولكن.. لا أخلي سبيل من في الداخل وإلا فإن المجانين يدخلونني المشفى وأنا أخشى ذلك.

وحسب ما كتبته الجرائد.. في مدينة أريسون توبوليس.. إن المجانين.. كانوا قد انتشروا في عموم أرجاء المدينة حتى أنهم سيطروا على بناء البلدية.

أذاع الراديو أخباراً سيئة ومخيفة في نشرة الظهيرة مفادها أن المجانين قد سيطروا على جميع المؤسسات والدوائر الحكومية مثل الهاتف والمواصلات والكهرباء والمياه.. وأن عددهم يبلغ ثمانمائة وثمانين مجنوناً.. يقابلهم ويجابههم أكثر من خمسة آلاف عسكري وشرطي. وفوق ذلك كله ثمة قوات أخرى قادمة من المحافظات المحاورة لتعزيز قوات الأمن في المدينة. ولكن المجانين كانوا يعرفون عملهم على أكمل وجه ولهذا كانوا الرابحين على الدوام.. فهم لم يسلموا الدوائر والمؤسسات التي استولوا عليها إلى أحد منهم كي لا ينقص عددهم تحسباً لكل الطوارئ والمواجهات.. بل كانوا يضعون على رأس كل دائرة يسيطرون عليها أحد العقلاء.. كرئيس أو مدير لتلك الدائرة. أما هم فكانوا يتقدمون دون أن يخسروا عنصراً واحداً.

كانت الجرائد المسائية قد نشرت خبراً يصعب على الإنسان تصديقه.. ومضمون الخبر: إن المجانين لم يغيروا مدير الأمن والمخابرات.. والنائب العام الجمهوري. وكانت إحدى الجرائد قد تساءلت عن سبب هذا التصرف من قبل مجانين سيطروا على المدينة بأكملها.. ونشرت جواب مجنون سألوه عن سبب هذا التصرف فقال: «سيأتي يوم.. ويسيطر فيه

العقلاء على الأمور تماماً.. وعندما يبدؤون بالعمل فإن كانوا لا يريدون تغيير النائب العام أو مدير الأمن والبوليس لأي سبب كان فنحن كذلك لم نغيرهم للسبب نفسه.. وبما أنهم كانوا يعملون ضدنا قبل يومين.. فجزاؤهم الآن إبقاؤهم معنا وفي صفنا».

بعد ثلاثة أيام من تمرد المجانين.. اعترفت الإذاعة بألم شديد وبحرقة كبيرة بأن المجانين على وشك أن يسيطروا على كامل البلد في أقرب وقت.

أما القائد (فيلد مارشال فوندر) والذي تعرضت قواته لهزيمة قاسية أمام المجانين.. فقد علل هزيمته على الشكل التالي:

«نحن أناس عقلاء.. وبما أننا عقلاء.. فإننا نحارب وفق الخطط والقوانين التي يضعها العقلاء. أما المجانين الذين لا يعرفون الخطط والقوانين لا نعرف ماذا سيفعلون.. وكيف سيهجمون وأين ومتى يتوقفون. إن جماعة المجانين هؤلاء يقومون بأعمال وأفعال لا تحدها حسابات ولا كتابات.. فمثلاً: يمسكون أقوى قائد في جيشنا.. ويستدرجونه خارج المعركة عن طريق المزاح ويقومون بأفعال وأعمال هزلية حتى ينهك القائد القوي من الضحك المتواصل.. ثم يأسرون جندنا.. ونحن نحاول أن نوضح أن المعركة ليست مزاحاً ولا شيئاً بسيطاً فهم يعون ما يفعلون.. إنهم يديرون كل الأعمال بالجنون والفنون.. ولكي نغلبهم ونوقفهم عند حدهم يجب أن نتعرف على كل السبل والوسائل والخطط التي يستخدمونها ولذلك فقد بدأنا بفتح دورات خاصة لمعرفة أساليب الجنون واللامبالاة.. وبأقرب وقت.. سيرى شعب (أرسينتوبوليس) كيف سنقبض على كل المجانين وندخلهم فرداً فرداً إلى مشافيهم العقلية.. إن الله دائماً مع العقلاء».

أما النهاية فلم تكن كما توقعها (الفيلد مارشال فوندر هيج) لأن الدورات التي فتحها العقلاء. لم تنجح بشكل منقطع النظير كما توقعوا

لها.. بحيث ظلت قوات العقلاء المتخرجة من هذه الدورات في صفوف المجانين وبشكل أتوماتيكي.. حتى (الفيلد مارشال فوندر هيج) نفسه.. كان قد صار بين قوات المجانين.

وبدأت الصحف.. رويداً رويداً.. تميل بمقالاتها وكتاباتها لمصلحة المجانين أيضاً.

وبدأت الأخبار المخيفة تتحول إلى أخبار أكثر إخافة ورهبة. كان المجانين يقبضون على ناصية الأمور على أكمل وجه.. لقد قبضوا على جميع المسؤولين الكبار.. حتى أعضاء حكومة (أريسنتوبوليس) وأدخلوهم المشافي العقلية التي فروا منها منذ عشرة أيام. وكان الخبر الأخير الذي بثته الإذاعة لمدينة (أريسنتوبوليس) ما يلي:

«الآن.. دخل المجانين مبنى الإذاعة.. واحتلوا الطابق الأول تماماً.. إنهم يصعدون السلالم.. المجانين يدخلون الغرفة التي أذيع الأنباء منها.. بعد الآن.. انتقل المذياع إلى أيديهم.. الوداع.. السادة المستمعون العقلاء.. عاش المجانين.. عاش الجنون.. وعاشت العصفورية»..

كان المجانين قد سيطروا على عموم البلاد.. وأدخلوا الحكام القدامى لمدينة أريسنتوبوليس إلى العصفوريات (المشافي العقلية). ولم يبق مسؤول عاقل واحد في الدولة الجديدة.. أما الباقون منهم.. وكانوا من الدرجة الثانية أو الثالثة.. هؤلاء أيضاً انضموا إلى صفوف المجانين.

لم يبق إنسان واحد يدافع عن العقل والعقلاء.. حتى من تبقى منهم.. فقد ضاقوا ذرعاً بالدفاع عنهم.. وغادروا مقرات أعمالهم إلى منازلهم. كانوا يخافون دخول العصفورية إذا ما عرف أنهم عقلاء.. ولذلك نسبوا أعمالهم هذه إلى الجنون.

مجموعات كبيرة من البشر كانوا يجتمعون في الساحات.. ويصرخون وبصوت واحد:

- عاش المجانين.. عاش الجنون.

أما العروض الجنونية فقد بدأت في الشوارع والطرقات. وكان الذين يقدمون هذه العروض ليسوا سوى العقلاء الذين يعرفون مصلحتهم.. وخرجوا إلى الطرقات يقومون بأعمال جنونية مميزة.. حتى لا يعرضهم أحد. يمشون على أيديهم بدلاً من أرجلهم.. يتدحرجون على الأرض.. وغير ذلك من الأعمال الجنونية الكثيرة.

وفي هذه الأثناء.. كانت التقارير قد بدأت بين هؤلاء.. كل ضد الآخر.. على أنهم عقلاء.. كي لا يدخلوا العصفورية.

أما الجرائد فقد بدأت تنشر على صدر صفحاتها.. وفي زواياها اليومية.. مقالات وأبحاث.. تمجد وتمدح الجنون.. وتضرب العقل والعقلاء.

* * *

المجانين الذين سيطروا على مدينة (أريسنتوبوليس) عقدوا أول مؤتمر لهم فقال أحدهم صارخاً:

- الدستور.

ارتفعت الأصوات من خلفه:

- نعم.. الدستور قبل كل شيء.

- قبل كل شيء.. نحن بحاجة إلى دستور كي نحكم بموجبه شعب أريسنتوبوليس.

قرر المجانين وضع دستور للبلاد.. كان كل مجنون يطرح فكرة معينة.. فقال أحدهم:

- أيها الزملاء.. أيها الأخوة.. أنا عندي اقتراح..

سأله المجانين:

ـ وما هو؟

ـ لماذا هربنا من العصفورية؟

ـ لأن عمل العقلاء لم يعجبنا.. لهذا السبب هربنا.

ـ نعم.. من أجل ذلك.. أمامنا مهمة كبيرة.. علينا أن نقوم بها وننجزها.. بما أن عمل العقلاء لم يعجبنا.. فوظيفتنا أو مهمتنا تتركز في تخريب ما عمله العقلاء.

صرخ المجانين دفعة واحدة:

ـ لنخرب كل شيء أنجزه العقلاء.. نحن ملزمون أن نقوم بأفعال وأعمال تناسب جنوننا.. كي نحكم المدينة.. وشعبها.. سنطَّلع على ما فعله العقلاء قبلنا في المدينة.. ونعمل عكسه.

تعالت أصوات من مناطق مختلفة:

ـ صحيح جداً.

ـ وهذا ما يناسبنا تماماً.

ـ سنخرب كل ما فعله العقلاء.

ـ سنعمل عكس ما فعلوا.

قال المجنون الذي في موقع الصدارة:

ـ إذن لنبدأ من الدستور.. أيها الأخوة المجانين.. ما رأيكم أن تكون المادة الأولى من دستورنا هي (المجانين سيخربون كل ما فعله العقلاء.. وسيفعلون عكسه تماماً) ماذا تقولون؟

ـ جيد جداً..

ـ جميل جداً.

ـ أيها الأخوة المجانين.. لننتقل الآن إلى المادة الثانية من الدستور.

ـ لتكن المادة الثانية طبق الأصل عن المادة الأولى.

ـ ماذا تقولون..؟

ـ جيد.. لتكن نفس المادة الأولى.

ـ إذن لننتقل إلى المادة الثالثة.

فانبرى مجنون وصرخ فجأة:

ـ نحن وضعنا كل ما يجب علينا أن نعمله.. ووظيفتنا الأولى.. شرحناها في المادة الأولى.. لتكن المواد كلها واحدة.

تم إقرار هذه المادة أيضاً.. وتم وضع دستور مكون من مائة مادة خاصة بالمجانين.. وكانت المواد كلها أي المائة على الشكل التالي: (سيقوم المجانين بتخريب كل ما فعله العقلاء.. وسيفعلون عكس ما فعلوا في كل الأمور).

أعلن الدستور على المجانين في مدينة أريسنتوبوليس.. ثم بدؤوا باختيار رئيس لهم.. كيف سيختارون رئيسهم؟

ذهبوا إلى العصفورية وسألوا العقلاء:

ـ سنختار من بينكم واحداً نجعله رئيساً لبلدية أريسنتوبوليس.. من يريد أن يكون رئيساً؟

رفع جميع العقلاء الذين ملؤوا العصفورية.. أياديهم دفعة واحدة. وكان بعضهم قد تمدد على الأرض.. رافعاً الأربعة.. الرجلين واليدين.

قال أحد المجانين لزملائه:

ـ أيها الأخوة المجانين.. كما ترون.. عندما نطلب رئيساً للبلدية من العقلاء.. أو لأية مهمة أخرى.. نراهم جميعاً يريدون ذلك.. أيها الأخوة المجانين.. من يريد أن يكون رئيساً للبلدية ليرفع يده!!.

لم يرفع أي من المجانين يده.

سأل مجنون عاقلاً كان يرفع يديه ورجليه:

ـ قل لي.. لماذا تريد أن تكون رئيساً للبلدية؟

قال صارخاً:

ـ لأنني الشخص المناسب والذي يستطيع أن يقوم بذلك العمل على أكمل وجه.

سمعتُ كلمات نابية وقاسية بين باقي العقلاء:

ـ كلا.. إنه إنسان حقير ووضيع.

ـ إذا كان هناك شخص مناسب على وجه البسيطة.. لإدارة البلدية.. فذاك الشخص هو أنا.

ـ كذابون.. الاثنان يكذبان..

ـ جهلاء.. إن الاثنين هما شيء...

ـ اجعلوني رئيساً.. لأن ذلك من حقي.

التفت المجنون السائل.. نحو المجانين وسأل أحدهم:

ـ أيها الأخ المجنون.. ألا تريد أن تكون رئيساً للبلدية؟

صرخ المجنون:

ـ لا أريد.

ـ ولماذا أيها الأخ المجنون.. ؟

ـ لأنني أعتقد وأظن.. أن بين زملائي المجانين من هو أكثر كفاءة ومقدرة مني .. أنا أريد أن يُنتخب زميل لديه الإمكانيات.

هذه الكلمات أغضبت العقلاء المحبوسين خلف القضبان وصرخوا بذلك المجنون الذي قال: «أنا أريد أن ينتخب زميل لديه الإمكانيات» وقالوا:

ـ يوووو يووو.. انظروا هذا المجنون الذي لا يريد أن يكون رئيساً للبلدية.

ـ واي يا مجنون واي..؟

ثم التفت المجنون نحو العقلاء.. وما إن أدار وجهه صوبهم حتى بدأ كل واحد من العقلاء يتوسل إلى المجنون.. قائلاً:

ـ ماذا يحصل..؟ اجعلني رئيساً للبلدية.

ـ اجعلني رئيساً للبلدية.. لوجه الله.

ـ أتمنى الموت.. إذا لم تجعلني..

التفت المجنون إلى زملائه وقال لأحدهم:

ـ هذه الوظيفة صارت من مهمتك.

ـ أرجوك.. لا تكلفني بهذه المهمة.. هذا العمل يستوجب مسؤولية كبيرة وأنا شخصياً لا أرى في نفسي الكفاءة لتحمل هذه المسؤولية.. فتجربتي قليلة في هذا المجال وعلمي قاصر.

فقال المجنون لمجنون آخر:

ـ وأنت..؟

قال المجنون:

ـ أرجو من زملائي إعفائي من هذا العمل.

لم يكن أحد من المجانين يقبل أو يرغب بأن يكون رئيساً للبلدية.

ثم التفت المجنون إلى أحد العقلاء:

ـ أنت.. لماذا تتوسل إلي دون توقف لتكون رئيساً للبلدية؟

قال العاقل:

ـ لأنني يا سيدي.. كنت موظفاً.. وأنا محال على التقاعد الآن.. وعندي من الخبرة ثلاثة وثلاثون عاماً.

التفت المجنون إلى أحد رفاقه وقال له:

ـ وأنت لماذا ترجوني دون توقف كي لا تصير رئيساً للبلدية؟

فكان جواب المجنون:

ـ لأنني يا سيدي.. أحلت إلى التقاعد بعد ثلاثين عاماً من وظيفة رئاسة البلدية.. إنه عمل صعب للغاية.. وبحاجة إلى جهد وطاقة وعمل متواصل.. وأنا كمتقاعد.. هل أستطيع أن أتحمل هذا العبء يا سيدي.. لاأستطيع.. أخاف أن لا أستطيع.. أخشى عدم قدرتي على القيام بهذا العبء الثقيل وهذه المسؤولية الكبيرة.

ثم التفت المجنون إلى أحد العقلاء وقال له:

ـ وأنت.. لماذا.. وبإصرار.. تريد أن تكون رئيساً للبلدية؟

قال العاقل:

ـ لأنني شاب يا سيدي.. والبلد لا يُرفع إلا على أكتاف الشباب.

التفت المجنون السائل.. إلى شاب مجنون وسأله:

ـ وأنت.. لماذا ترجوني.. وتقول آمان لا تجعلوني رئيساً للبلدية..؟

قال الشاب المجنون:

ـ لأنني شاب.. وليس عندي الخبرة والعلم الكافيين لاستلام الرئاسة.

والتفت المجنون السائل نحو العقلاء وقال لهم:

ـ كما ترون.. لا أحد من المجانين يريد أن يكون رئيساً للبلدية.. والعقلاء كلهم يريدون أن يستلموا هذه المهمة.. من أجل ذلك.. يجب أن نجعل واحداً من العقلاء رئيساً للبلدية.. وليكن هذا الرجل.

وإذا بالعقلاء يقيمون الأرض ويقعدونها:

ـ إياك هااا.. إنه واحد قليل الناموس.

ـ إنه سافل وحقير.

ـ حقير أكثر من الحقارة نفسها.

ـ إنه ليس من حزبنا.

ثم قال المجنون لأحد المجانين:

ـ إذن لننصبك رئيساً للبلدية.

قال المجنون:

ـ هذا الأخ يستطيع أن يقوم بهذا العمل أفضل مني.

وأشار إلى مجنون آخر..

بدأ المجانين بالصراخ:

ـ نعم لنجعله رئيساً..

ـ شاب.. ومتعلم..

ـ عنده كرامة وناموس.. ثم إنه مجتهد.. يعمل بجد ونشاط.

قال:

ـ سأحاول بقدر طاقتي أن أقوم بهذا العمل.. وأنا أريد أن أكون عند حسن ظنكم جميعاً.. على الثقة التي أوليتموني إياها. وسأتحمل هذه المسؤولية دون خوف ولا وجل ولا جزع.. من العاقل الذي يريد أن يأخذ هذا المنصب؟.. ولكن أريد مساعدتكم.. فإذا ارتكبت خطأً.. أرجو أن تنبهوني وترشدوني إلى الصواب..

* * *

بدأ المجانين بحكم مدينة (أريسنتوبوليس) وفق الدستور الذي جهزوه.. لم تتشكل الحكومة بسهولة لأن المجانين ما كانوا يجدون في أنفسهم الكفاءة والقدرة ليصبحوا وزراء.. عكس العقلاء تماماً.. الذين كان كل منهم يريد أن يقتل نفسه ليستلم منصباً.

ولم يرشح أحد من المجانين نفسه أو من تلقاء ذاته.. أبداً.. بل كان ترشيحهم من قبل معارفهم وأصدقائهم.

المجنون الذي استلم وزارة التربية والتعليم راجع بجدية كل ما فعله الوزير العاقل الذي كان قبله.. وحسب ما جاء في الدستور الجديد.. فقد أزاح الوزير المجنون.. كل برامجه.. ووضع برامج جديدة جنونية بحتة.

أي أنه عمل عكس ما فعله أحد العقلاء.

أصبحت الخطط القديمة وبرامج العقلاء القدامى باطلة برمتها وملغاة.. وقد كتب أحد العقلاء في العصفورية كتاباً بحق رئيس المجانين.. كي يخلص نفسه من آفة العصفورية وسمى الكتاب: (أعقل إنسان عرفته البشرية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها).. وحاول العاقل بكتابه هذا أن يرفع رئيس المجانين إلى مراتب عليا.. ومدحه مدحاً لم ينله أحد بعد.. أما الرئيس المجنون فقد افتخر بنفسه كثيراً وقال:

ـ يجب أن يأخذ كل كاتب مقابل ما كتبه.

وبعد ذلك بدأ يفتش ويسأل.. ماذا كانوا يفعلون بالكاتب الذي يمدح رئيسه في زمن العقلاء.. فعرف أن العقلاء كانوا يمطرونه بالهدايا.. ويرفعون شأنه ومنصبه.. ويزيدون راتبه ودخله.. ويحققون له الأرباح حتى من الهواء..

جمع رئيس المجانين شعب (أريسنتوبوليس) في الساحة العامة.. وأحضر الكاتب الذي مدحه وأوقفه في مكان بارز.. وقال له أمام الشعب:

ـ أي.. أيها المواطن العاقل.. لقد قرأت كتابك الذي مدحتني فيه. وأشكرك كثيراً.. ولا أريد أن أظل مديوناً لك على هذا المعروف الذي قدمته لي.. لقد سألت العقلاء عما كانوا يفعلونه بأمثالكم فعرفت كل شيء. وبما أنني مجنون.. بالتأكيد سأعمل حسب جنوني وشعوري.. أي

عكس ما فعله وعمله العقلاء من قبل. والآن.. سأعمد إلى ضربك علناً وأمام جمهورك بهذه العصا حتى يعود الحمار من الماء.

وهجم المجانين على الكاتب الذي مدح رئيسهم وظلوا يضربونه بالعصا حتى أغمي عليه.

وقد ظهر لأحد أعضاء الهيئة التعليمية الجامعية العليا.. والذي فهم أن من يمدح رئيسه أو من هو أرفع منه شأناً.. لن يساوي شيئاً بعد الآن.. وأن مدح الرؤساء جريمة. فبدأ بشتم أحد القادة القدماء العاقلين بشتائم بشعة.. وبكلمات نابية.. ولم يستطع أن يتمالك نفسه.. فكتب مقالة عن رئيس العقلاء جاء فيها:

«يجب أن نشنق هذا الرجل! يجب أن نقطعه إرباً إرباً.. أن ننفيه.. أن نقعده على الخازوق.. أن نجعله نتفاً متناثرة».

وصل الخبر إلى رئيس المجانين.. فقال:

ـ نحن مجانين.. ولن نتصرف بما يخالف نظامنا أو الدستور.. وأي تصرف من هذا القبيل لا يناسب جنوننا.. ومن أجل ذلك سنعود إلى الدستور وسنحكم بموجب نصوصه على هذا المواطن الذي أنزل الشتائم وانتقد المسؤولين الأقدمين.

كان دستورهم يأمر بفعل عكس ما يفعله العقلاء.. كان العقلاء يقبلون أمثال هؤلاء من جباههم ووجوههم. فقال رئيس المجانين:

ـ إذن ستبصقون في وجهه.

عارضه العاقل وقال:

ـ سأحصل على حقوقي في المحاكم العليا.

بحث المجانين في حقيقة هذا الأمر..

ماذا كان يفعل العقلاء في الإدارة القديمة بالشخص الذي يسبهم

ويرتفع شأنهم من جراء سكوتهم؟ كان رئيسهم يقول: «أنا لا أريد أن أكبر.. أنا أريد أن أحصل على حقي في المحاكم العليا»؟

كلا.. ما كانوا يقولون ذلك.. في القديم كان أعضاء الهيئة التعليمية العليا يستطيعون الوصول إلى أرفع المستويات.. والإدارة لا تحاسبهم.

عندها عرض العاقل مشكلته للمحكمة العليا أو المقام العالي. سأله المقام العالي:

ـ ماذا تريد فعله بالإدارة القديمة؟

ـ يجب تقطيعهم يا أفندم.. شنقهم يا أفندم.

ـ هل ارتكبوا ذنباً ما؟

ـ أنتم لا تعرفون يا أفندم.. فعلوا أشياء وأشياء يا أفندم.

ـ ومتى فعلوا ذلك.. حديثاً أم في العهد القديم؟

ـ في عهدهم يا أفندم.

ـ حسن.. لماذا لم تطرح رأيك أو تعلن عن أفكارك وأخفيتها..؟ ولماذا تقولها الآن..؟

ـ في ذلك الوقت كنت أخاف يا أفندم.

ـ طيب.. في ذلك الوقت.. يقولون إنك مدحت نفس ذلك الرجل..!

ـ من خوفي يا أفندم.

ـ هل أجبروك على المدح؟

ـ كلا يا أفندم.. لكن الأحوال المعيشية يا أفندم.. أنا عندي أولاد وعيال يا أفندم.

أعطى المقام العالي قراره.

كان المجانين يقومون بإدارة كل الأعمال.. في وزارة التجارة والإسكان

والصحة.. وكل شيء في البلد بجنون لم ير أحد مثله من قبل.

ذات يوم جاء وزير الثقافة إلى الملعب (استاديوم).. لحضور مباراة قوية بين أقوى فريقين عريقين في (أريسنتوبوليس). كان في الملعب أكثر من ستين ألف مشاهد.. ملؤوا الملعب من أوله إلى آخره.. أوقف الوزير المباراة وسأل الحكم:

- ماذا تفعلون؟

- إنها مباراة بكرة القدم يا أفندم.

- وما هي هذه المباراة التي تقودها؟

- إنها رياضة يا أفندم.

- وماذا تنفع هذه الرياضة؟

بدأ الحكم بالحديث مظهراً كل خبراته في الرياضة والرياضيين:

- الرياضة يا سيدي تقوي الأبدان. عندما يكون الجسم سليماً فالعقل الذي في الرأس يكون سليماً.. والرياضة تساعد على تنشئة الشباب نشأة صالحة.. بحيث تصبح.. أجسامهم صلبة ورشيقة.. وبهذه الوسيلة يرفعون من شأن البلد كثيراً.. ولهذا نعطي للرياضة أهمية قصوى.

قال الوزير:

- طيب.. ولكن ما أراه.. ليس في الساحة سوى اثنين وعشرين شاباً يقومون بتطبيق الرياضة التي تحدثت عنها.. وماذا يحصل لكل هؤلاء الذين ملؤوا الملعب وعددهم أكثر من ستين ألف شخص.. وربما الشيء الذي لا أعرفه.. هل الجالسون المشاهدون أيضاً تقوى أجسامهم أثناء مشاهدتهم للمباراة.

تعجب الجالسون من كلام الوزير.. ولم يقولوا شيئاً.. نظر الوزير المجنون إلى المشاهدين وقال لأحدهم وكان بديناً منفوخاً مثل الطبل:

ـ ما شاء الله.. أرى أن جسمك قد أصبح رائعاً متناسقاً ورشيقاً.

وقال لشاب اختنق صوته من شدة الصراخ والتشجيع:

ـ وأنت.. على الأغلب.. حنجرتك تقوى من هذه الرياضة.

وقال لرجل ضعيف البنية:

ـ أرى أن الرياضة قد نفعتك كثيراً.

ثم أعطى أمراً:

ـ على جميع المشاهدين أن ينزلزا إلى الملعب (العشب) ويلعبوا بالكرة بعد أن ينقسموا إلى فريقين.

نزل الجميع إلى ساحة الملعب.. الضعيف والبدين والمريض.. والطويل والقصير.. نزلوا إلى الساحة ولعبوا بالكرة حتى سقطوا على الأرض من شدة التعب.

وبما أن أجسامهم لم تعتد على التعب.. لم يستطع أي منهم أن يرفع رجله عن الأرض من شدة الإرهاق.

لقد عقد المجانين الأمور إلى أبعد الحدود.

في أحد الأيام.. ذهب مسؤول من المجانين إلى اجتماع فاستقبله الحضور بتصفيق حاد.. سألهم المجنون الذي دهش كثيراً من هذا التصفيق.

ـ ماذا هناك؟

ـ لا شيء.

ـ إذا لم يكن هنالك من شيء.. فلماذا هذا التصفيق؟

ـ لأنكم حضرتم.

ـ إذا حضرت!؟ أنا الذي حضر وأنتم ماذا حصل لكم؟ يعني تصفقون

لأنني مشيت.. طبعاً الإنسان إذا لم يكن عاجزاً سيمشي.. وإذا طرت كالعصفور.. ماذا.. تفعلون..!

عندها فرض عليهم المسؤول المجنون عقوبة التصفيق لمدة أربع وعشرين ساعة متواصلة.

وذات يوم ذهب أحد المجانين إلى ملهى ليلي.. كانت إحدى الفتيات (الأرتيستات) عارية تتلوى على أنغام الموسيقى.. سأل المجنون المشاهدين:

ـ ماذا تشاهدون؟

ـ جسد فتاة عارية.

ـ هل جئتم إلى هنا لهذا السبب؟

ـ نعم.

ـ وكم دفعتم من أجل ذلك؟

كان البعض قد دفع خمسين.. والبعض مائة ليرة.. وآخرون كانوا قد دفعوا خمسمائة ليرة.

ـ هل دفعتم كل هذا المال.. كي تشاهدوا هذه الفتاة عارية؟

ـ نعم.

ـ وهل في جسد هذه الفتاة شيء مميز عن جسد الفتيات الأخريات؟ أم أنه سيخرج من بين سيقانها أرنب يا ترى؟

ـ كلا..

ـ حسن.. أليس عيباً ما تفعلونه؟

بدأ أحد الحاضرين العقلاء الندوة وهو أكثرهم علماً ومعرفة:

ـ آمان أفندم.. أمعقول أن يكون عيباً؟ نحن لا ننظر إليها بنية سيئة.. إن الجسد العاري يسبب للإنسان هيجاناً.. يعطيه ذوقاً بديعاً..

قال المجنون:

ـ فهمت.. أنتم محقون.. أنا الذي أخطأت. بما أن الجسد العاري يعطي ذوقاً بديعاً.. وهيجاناً.. إذن أنا آمر الجميع أن يحضروا زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم إلى هنا.. ويتعرين ويتمايلن على أنغام الموسيقى.. وبهذا نكون قد رفعنا من هيجاننا إلى أبعد حد.

أحاط المشاهدون بالمجنون يريدون تقبيل قدميه:

ـ آمان أفندم..

ـ هل الهيجان لا يعطيه سوى جسد هذه الفتاة؟

انتهرهم بشدة.. وأمرهم بخلع ثيابهم على المنصة.. كما ولدتهم أمهاتهم ورقصوا على أنغام الموسيقى.

* * *

خرَّب المجانين دوزان مدينة (أريسنتوبوليس) الذي عمره مئات الأعوام.. لم تبق حالة جنون إلا وعرضوها.. خربوا كل شيء.. ولم يتركوا من آثار العقلاء شيئاً.

في أحد الأيام اجتمع المجانين كلهم.. فقال رئيسهم:

ـ هل بقي شيء لم نخربه في مدينة (أريسنتوبوليس) أيها الزملاء؟

ـ لم يبق شيء.

ـ هل خربنا كل شيء فعله العقلاء؟

ـ نعم خربنا.

ـ لا أريد أن يظل شيء ما لم نخربه في الزوايا أوالشواطئ.

كلفوا رجالاً منهم.. ليبحثوا في كل مكان.. إذا كان هناك شيء لم يخرب.. لكنهم عادوا ولم يجدوا شيئاً.. قال رئيسهم:

ـ أيها الأخوة.. لقد نفذنا كل ما قلناه.. انتهت مهمتنا بعد الآن.. لم يبق لنا عمل نعمله.

صرخ المجانين:

الآن فقط نستطيع أن نعود إلى العصفورية بكل راحة.. هيا أيها الزملاء.. لنذهب إلى العصفورية.. ولنترك العقلاء يغلقون علينا الأبواب.

هذا الخبر انتشر في مدينة (أريسنتوبوليس) وتناقلته الألسن. حيث بدأ أهالي أريسنتوبوليس.. يتضرعون إلى المجانين وهم يبكون.

ـ بالله عليكم لا تتركونا.

ـ ستتركوننا مرة أخرى تحت رحمة أولئك العقلاء.

ـ أليس عندكم حس شفقة أو رحمة..؟ تتركوننا هكذا على وجوهنا وتذهبون؟

لم يستمع المجانين إلى تضرعات وتوسلات الشعب.. ذهبوا إلى العصفورية.. كلهم دفعة واحدة .. أخرجوا العقلاء ودخلوا مكانهم.. وما إن خرج العقلاء من العصفورية.. حتى أغلقوا الأبواب في وجه المجانين.. أي حبسوهم. ثم بدؤوا بإصلاح ما خربه المجانين في أريسنتوبوليس.

وهذا لم يحصل بسهولة لأن الشيء الذي يخربه المجنون لا يستطيع العاقل أن يصلحه في أربعين عاماً.. (هكذا قال الأولون).

والآن إذا بقيت هناك بعض الأعمال الحسنة والخيرة في أيسنتوبوليس.. فهذه الحسنات هي ثمرة من كانوا يحسبونهم مجانين.

○ ○ ○

المفتش قادم

نحن تسعة وعشرون موظفاً.. نعمل في دائرة حكومية.. عشرون موظفاً متقاعداً تقريباً.. ونستطيع القول جميعنا متقاعدون.. بالراتب الكامل.. هكذا.. نحن.. ونحن هكذا.. من المستحب أن أقول أيضاً إنه لا أحد منا يهرب من العمل.. ولا يتهرب من الدوام.. الجميع يأتون ليعملوا.. هل ذكرت العمل..؟ وأي عمل هذا..؟ أنا أعمل في هذه الدائرة منذ تسعة أعوام.. لا أتذكر أنني قمت بعمل ما خلال هذا الوقت الطويل من خدمتي.

يبدو أن المراجع العليا قد نسيتنا أيضاً.. لا أحد يعرف إن كنا موجودين أو غير موجودين.. بالتأكيد. ربما كانت هناك أشغال وأعمال تنفذها دائرتنا فيما مضى.. وكان المواطنون يقصدونها كي ينجزوا أعمالهم بالتأكيد.. ولكن ما الذي حصل..؟ وكيف..؟ لا أحد يعلم.

أصبحنا منسيين من الجميع.. المقامات العليا والمقامات الصغرى.. ربما كانت المقامات العليا فيما مضى تأمرنا ببعض الأمور.. وتطلب منا أعمالاً كي ننجزها. ثم جاء زمن.. وربما جاء مدير يعرف مصلحته وعمله كثيراً.. (مدير خلوق مؤمن).. يسألونه عن الدائرة عدة مرات فلا يجيب إلا بالخير.. ولا يقدم التقارير اللازمة بحق المواطنين أو الدائرة.. ومن المؤكد أن المقامات العليا بدورها قد ملت الأسئلة فتركتنا في حال سبيلنا.. لا أحد يسأل.. ولا أحد يستفسر عنا ولا عن شغلنا.. ونسوا دائرتنا كلياً.. طبعاً لن يلغوا دائرة كبيرة لأنها لا تجيب عن أسئلتهم واستفساراتهم.

في حياتي الوظيفية تعلمت أن.. من يعمل كثيراً يتعبونه كثيراً..

يضعون أمامه أعمالاً أخرى.. والمسكين يحاول المستحيل كي ينجز هذه الأعمال ولذلك يعمل ليل نهار.. وكلما ازداد نشاطاً يطرحون أمامه أعمالاً أكثر. أما إذا كان الموظف متقاعساً (تنبلاً أو عونطجياً) فلا أحد يكلفه بعمل على اعتبار أنه لا يفهم شيئاً.. وعقله لا يستوعب الأعمال المقدمة إليه ولذلك فهو لا يخطئ ولا يلام. أما الموظف المجد الذي ينجز أعماله كلها يوماً بيوم طبعاً سيرتكب بعض الأخطاء.. وبسببها ستطاله بعض الشتائم.. واللوم والتجريح لأنه أخطأ. ويغضبون عليه ويحققون معه كأنه مجرم كبير متناسين عمله المتواصل ونشاطه المستمر.. ولم يعرفوا أنه من جراء كثرة الأعمال تكثر الأخطاء.. ومع كثرة الأخطاء تقع المساءلات من الإدارة.. والموظف الذي لا يعمل أبداً.. لا يخطئ أبداً.. ولا يقع في مشاكل مع الإدارة على مبدأ (من لا يعمل لا يخطئ).

كل الدوائر هكذا.. مثلاً لنقل يوجد دائرتان.. إحداهما الدائرة البيطرية والأخرى دائرة الطابو (العقارية). الدائرة العقارية تنجز جميع الأعمال المتعلقة بها على أكمل وجه. وبالمقابل.. لا تقوم الدائرة البيطرية بأي عمل. وتوقف الأعمال البيطرية في البلد يعني عدم مكافحة الأمراض والأوبئة التي تصيب الحيوانات وتؤدي إلى تدمير الثروة الحيوانية.. ولكن لم تنقطع الأعمال البيطرية في البلد لأن دائرة ما لا تقوم بالعمل الموكل إليها.. وصدَّقوا أن هناك موظفين في الدائرة العقارية يقومون بإنجاز جميع الأعمال المتعلقة بالدائرة العقارية.. يعملون على تسيير أمورها إضافة إلى أعمالهم العقارية.

لا أحد يعلم أية دائرة مجتهدة.. تقدم لنا هذا العون وهذه الخدمة لتظل دائرتنا تعيش هكذا! وربما ليس لدائرتنا عمل أبداً.

سامح الله المدير الذي أوصلنا إلى هذه الحال.. وجعل المقامات العليا تنسانا إلى الأبد..

ولم يغب عن ذهني أنكم ستقولون:

ـ طيب.. ألم تنس المقامات العليا رواتبكم أيضاً..؟

لا.. أبداً.. نحن نقبض رواتبنا كل شهر.. ولهذا فنحن متأكدون بأننا غير منسيين.. لو مضى شهران أو ثلاثة ولم نقبض فيهما رواتبنا لقلنا ربما يكونون قد نسونا.. ولكن نحن نقبض كل شهر.. يقوم المحاسب بتجهيز السجلات ونحن نوقعها.. ويذهب.؟.؟.؟.؟ إلى مديرية المالية.. يأتي برواتبنا. وأصعب شيء نقوم به في دائرتنا هو توقيع سجل الراتب.. ولولا ذلك لقالوا إننا نقبض رواتبنا من الله تعالى اسمه وتمجد.

كلما أنظر إلى هذه الدائرة التي أعمل فيها موظفاً منذ تسع سنوات.. هل تعلمون بماذا أفكر؟ أقول في نفسي: يا ترى لو أن المقامات العالية لم ينسوا دائرتنا.. هل كانت تسير على أحسن مما هي عليه الآن..؟ ولو أننا قلنا عكس ذلك مثلاً كما لو أن دائرتنا استطاعت أن تجعل المقامات العليا تنساها.. ولو أن الدوائر الأخرى بدأت تنسى نفسها واحدة إثر أخرى.. ماذا كان سيتغير يعني؟ هل كان نظام الدنيا سيخرب؟ أو لن يتغير شيء على الإطلاق..؟ أو ربما كانت الأمور قد سارت أفضل مما هي عليه الآن..؟ عندي فضول كبير لأعرف ذلك.

هذه الحياة المترفة التي كنا نعيشها في دائرتنا.. انقلبت رأساً على عقب بعد أن أحيل مديرنا إلى التقاعد.. وجاء بعده السيد صفوت مديراً جديداً لنا. مع مجيئه تغيرت كل الأمور. والشيء الذي لم أفهمه: كيف عرفوا بهذا الشاغر.. بعد إحالة المدير على التقاعد؟! كيف أرسلوا مكانه مديراً جديداً..؟ وكان يتراءى لي أننا سننتهي.. وستنتهي معنا هذه الدائرة.. مع إحالتنا إلى التقاعد.. واحداً بعد الآخر.. لن يأتي أحد مكاننا.. ومع مرو الوقت ستدخل دائرتنا مجاهل التاريخ ولن يبقى لها ذكر أو مسمى. ذلك لن يحدث.. فهم لم ينسونا نهائياً.. لأنهم أرسلوا مديراً جديداً يرأسنا.

ومنذ وصول السيد صفوت إلى الدائرة.. بدأت أعماله (بأكل الهوى في أول يوم).. تشاجر مع الخادم والبواب والبستاني والحاجب.

عندما وصل إلى الدائرة الساعة التاسعة صباحاً ولم يجد أحداً...

فكروا بالله عليكم.. الساعة التاسعة صباحاً.. من يكون في تلك الساعة في الدائرة؟ لو كان عندنا عمل واحد.. أقدم روحي فداء وقرباناً لذلك العمل.. وسيكون حضورنا منذ الساعة الثامنة وليس التاسعة.

يقال إنه عندما وصل المدير إلى الدائرة الساعة التاسعة وجد الباب مغلقاً.. فبقي واقفاً أمامه ساعة كاملة.. وبتمام الساعة العاشرة وصل الخادم.. مصطفى أفندي.. وعندما هم بفتح الباب سأله المدير:

ـ من أنت؟

لماذا تسألني..؟ ألا تعلم أن في دائرتنا ديمقراطية حقيقية..؟ لا فرق عندنا بين مدير أو موظف.. أو خادم.. أو حاجب.. فالكل سواسية.

ولهذا السبب دهش مصطفى أفندي كثيراً من سؤال المدير. وبما أنه لم يشاهد وجهاً غريباً منذ سنوات طويلة قريباً من الدائرة.. سأل المدير:

ـ ومن أنت؟

سأله المدير مجدداً:

ـ ما عملك هنا ولك؟

ـ أنا.. أنا.. ومن أنت؟

كان الخادم مصطفى أفندي على وشك أن يسلم المدير الجديد للشرطة على أنه جاسوس يجول في المنطقة.. البركة في المدير الجديد.. قال:

ـ أنا مدير هذه الدائرة.. لقد عينوني حديثاً.

فقال له مصطفى أفندي:

ـ وأنا خادم هذه الدائرة منذ أربعة عشر عاماً يا سيدي.. أهلاً بكم.

ـ ألا يوجد غيرك في هذه الدائرة؟

ـ أمعقول هذا..؟ نعم يوجد.

هذا الحديث حكاه لنا فيما بعد مصطفى أفندي.

قال له السيد صفوت:

ـ الساعة الآن العاشرة.. والباب مقفل.. لو جاء الموظفون.. فكيف سيدخلون؟

مصطفى أفندي:

ـ كل موظف يحمل مفتاحاً للباب الخارجي.. فمن يأتي باكراً يفتح باب الدائرة ويدخل.. اليوم سأحاول أن أصنع لكم مفتاحاً.

عندما جئت إلى الدائرة شاهدت صمتاً مطبقاً عليها يشبه صمت الأموات.. قلت للزملاء:

ـ خير إنشاء الله.. ما الذي يحدث؟ ماذا حصل؟

قالوا:

ـ جاء مدير جديد لدائرتنا وهو يريد عملاً.

قبل أن أجد فرصة للكلام دخل مصطفى أفندي الغرفة وقال لي:

ـ المدير الجديد يطلبك.

ذهبت إلى غرفته.. فوجدته مستنداً بمرفقيه على زجاج الطاولة.. ووجدت نفسي أمام حاجبين مقطبين ووجه عابس.. قلت:

ـ أهلاً وسهلاً يا سيدي..

ومددت له يدي.

بقي مدة من الوقت يفكر.. هل يصافحني أم لا.. في النهاية مدَّ يده وصافحني.. قال:

ـ أنت ماذا تفعل في هذه الدائرة؟

ـ من..؟ أنا..؟

ـ نعم.. أنت.

ـ أنا موظف.

ـ موظف شو..؟

يا له من سؤال:

ـ أنا موظف في الدائرة.

ـ فهمت يا سيدي.. موظف شو.. يعني ماذا تعمل..؟ ما هو نوع عملك؟

ـ والله هنا في الدائرة لا يوجد عمل أو فرق بين الزملاء.. من أجل ذلك.

ـ في أية ساعة تأتي إلى الدائرة؟

ـ لو جئت باكراً.. فماذا أعمل يا سيدي إن لم يكن هنالك عمل في الدائرة؟

ـ إذن.. اجلس في بيتك ولا تأت أبداً.

ـ آمان يا سيدي.. وهل يستطيع الإنسان أن يتحمل الجلوس في المنزل منذ الصباح حتى المساء.. مع الزوجة ولسانها والأولاد وضجتهم. لو أنكم أمضيتم عدة أيام في المنزل.. سترون سيادتكم. إنكم لن تتحملوا البقاء منذ الصباح حتى المساء.. وترغمون أنفسكم للمجيء إلى الدائرة.. كي تريح رأسك بعض الشيء.

المدير لم يطلب مني الجلوس.. غير أني تحدياً لكبريائه وعدم لباقته جلست على كرسي مقابله تماماً وأخرجت علبة السجائر من جيبي وقدمتها له فقال:

- تستطيع أن تذهب.

يا له من رجل شاذ..! وضعت علبة السجائر في جيبي وخرجت من غرفته.

لم يترك السيد صفوت أسلوباً إلا وطبقه معنا.. في البداية أحضر سجلاً أسماه سجل التواقيع.. لم نر سابقاً مثل هذا السجل أبداً.. يجب أن يكون الجميع في الدائرة عند الساعة التاسعة حتماً.. ولن يغادرها أحد قبل الخامسة مساء.. وعليه أن يوقع على سجل الدوام عند الدخول صباحاً وعند المغادرة مساء. وبهذا يكون قد عرف الغائبين والمتأخرين.. والهاربين.

سجل تواقيعه هذا لم يفده بشيء على الإطلاق.. فالموظفون ألقوا بالدفتر عرض الحائط ولم يوقع عليه أحد.

كان المدير يصرخ في وجوه الحجاب بأعلى صوته:

- أزيلوا بيوت العناكب.

- امسحوا الزجاج.

- اكنسوا السلالم.

المدير وحده كان يتكلم.. وهو الذي كان يسمع.. لا أحد يستمع إليه.. ولا أحد ينفذ أوامره.

- قوانين العمل.

أية قوانين عمل هذه..؟!

- على كل موظف أن ينهي الملفات العائدة له ويحضرها إلى مكتبي.

شو.. ملف..؟ وأي ملف هذا.. فأنا منذ تعييني في هذه الدائرة لا أذكر أنني حملت ملفاً في يوم من الأيام. حتى الخزانة غطاها غبار بسماكة الإصبع.

كل يوم يتلو على مسامعنا شيئاً جديداً:

ـ سيكون عندكم دفتر ذمة للدائرة.. وسجل صادر ووارد..

ولك عمي.. ما هذه السجلات والأوراق..؟ والصادر والوارد..؟ لا يأتي إلى دائرتنا أي كتاب رسمي أو غير رسمي حتى نسجله.

كل يوم يأتينا بقرار جديد وعمل جديد.. لِيُحضر ما بدا له.. ما من أحد يستمع أو يفكر في كلامه.. كل واحد منا على هواه.

في أحد الأيام قال لي زملائي:

ـ ولك اذهب وتفاهم مع هذا الشخص.. فهِّمه كل شيء.

وذهبت إلى مكتبه وقلت:

ـ أنت تتعب نفسك عبثاً يا سيدي. هذه الدائرة لا تشبه غيرها من الدوائر.. هنا لا يوجد عمل ولا يوجد تسلط.. يعني ستخلق لنا عملاً من الهواء.

ـ ألا تأخذون رواتبكم؟

قلت:

ـ نعم نأخذها.

ـ ومقابل ماذا تأخذون الرواتب؟

ـ يا سيدي نحن موظفو دولة.. بكل تأكيد سنأخذ رواتبنا.. يعني سنكون موظفي دولة.. لله تعالى؟

ـ إذن ستعملون..

ـ ولماذا سنعمل؟ هل هناك عمل ونحن لا نقوم به..؟ يبدو أن هذه الدائرة أصبحت في عالم النسيان.. وما من أحد يعرف عنها شيئاً.

غضب المدير كثيراً وصرخ:

ـ أن أريد وظيفة.. مهمة.. أعرف كيف أعيدكم إلى جادة الصواب.

أعدنا إن استطعت.. نخشى أن تخرج أنت أيضاً عن جادة الصواب..

قال:

ـ سأكتب في سجلاتكم.

لتكتب..

ـ أقدم شكوى ضدكم.

فلتعمل..

كل ما فعله ذهب سدى. لم يقو علينا. لم ننظف خيوط العناكب المعلقة على السقف.. والغبار المتراكم فوق الخزائن.. ولم نحضر إلى الدائرة في ساعة العمل الرسمية.. ولم نوقع على سجل الدوام.. حتى إننا قلنا له:

ـ انظر.. لا تعاندنا.. دعك في المكان الذي أنت فيه.. هل الراحة التي أنت فيها تجعلك غير مرتاح..؟ إذا بقيت هكذا سوف نعاديك. الموظفون كلهم متفقون ضدك.. ونرفع بحقك شكوى.. بتواقيع الجميع.

في النهاية.. رضخ السيد صفوت وقال:

ـ بعد الآن لن أتدخل في شؤونكم.. ولكن إن كنتم رجالاً.. ابقوا كما أنتم.

رجعنا ثانية إلى حياتنا الطبيعية القديمة.. يوجد مدير أم لا يوجد.. لا أحد يهمه الأمر.. أما هو.. فكان يأتي إلى الدوام كل يوم الساعة التاسعة صباحاً ويغادر مساء في تمام الخامسة.. ولا يخرج من غرفته منذ الصباح حتى المساء. ولم نكن نعلم ماذا يفعل لوحده.

في أحد الأيام.. أحضر ساعي البريد إلى دائرتنا مظروفاً أصفر رسمياً.

الله.. الله.. ومن أين جاء هذا.. احترنا فيما سنفعله.. اجتمعنا حول الظرف.. وكل واحد يقول للآخر:

ـ افتح هذا الظرف لنرى..

ولكن لم يكن لدى أي منا الشجاعة الكافية لفتحه.

قال السيد محسن وهو موظف عندنا للموظف حسام الدين أفندي:

ـ افتح هذا الظرف يا حسام الدين أفندي.

غضب حسام الدين أفندي وقال:

ـ لماذا لا تفتحه أنت.. وتقول لي افتحه؟

ـ ولك حبيبي ألست الموظف المسؤول عن القيود.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

كلامه صحيح.. أخذت الظرف وقلت:

ـ وما علاقتنا بالأمر..؟ ربما تصيبنا مشكلة ما إذا ما فتحناه. لنأخذه إلى المدير.. ليفتحه هو.

دخلنا إلى السيد المدير.. والظرف في يدي.. قلت له:

ـ لك رسالة يا سيادة المدير.

قال حسام الدين أفندي:

ـ هذه ليست رسالة ولك أخي.. يسمونها تحارير.

همست في أذن حسام الدين:

ـ يعني أنا لا أعرف أنها أوراق..؟ لماذا تعمل نفسك وكأنك تعرف كل شيء.. إذا قلنا له أوراق.. ربما لا يفتحها.. قلت له عن قصد أنها رسالة ليفتحها شخصياً.

أدخل السيد صفوت المشرط من زاوية الظرف.. وفتحه أمام دهشتنا ونظراتنا الحيرى.. يا ترى ماذا سيخرج من داخله..؟ كنا منفعلين بشكل عجيب.. بحيث لو خرج أرنب أو حمامة من هذا الظرف لما دهشنا. من

الذي تذكرنا وأرسل لنا هذا الظرف يا ترى..؟!

أخرج مديرنا الأوراق من داخل الظرف.. وقرأها.. قال شو..؟ إن دائرتنا قد وضعت في المنطقة الثالثة للتفتيش.. وخلال شهر نيسان سيقومون بتفتيشها.

قال السيد محسن:

ـ آمان.. آمان.

وقال حسام الدين أفندي متسائلاً:

ـ هل قلت التفتيش..؟ يعني هل سيأتي إلينا مفتش..؟

ـ أي واه..

ـ هل قلت في شهر نيسان..؟

ـ ماذا سنفعل ولك أخي..؟

فقال المدير ببرودة أعصاب لم نعهدها فيه من قبل:

ـ المفتش ليس إلهاً.. ماذا سيفعل يعني؟

ـ ولك آمان يا سيدي المدير.. ماذا تقولون..؟ ألم تروا في حياتكم مفتشاً أبداً.. لقد جاء إلى دائرتنا القديمة مفتش.. بس شو..؟

ـ ولك أخي بالتأكيد ليس هو عزرائيل حتى يأخذ أرواحنا.

ـ لو أخذها أفضل.. من أن يقبض عليها فينقلنا من هذه الدائرة إلى دائرة أخرى.. يوزعنا على الدوائر كيفما شاء.

ـ لقد جاء وقت ترفيعي ولك أخي.

ـ فإذا نقلني إلى مكان آخر.. معناه احترقت.

ـ وأنا الآخر.. ابني في المدرسة.. وابنتي في المعهد.

ـ هذا المفتش.. لا يرحم أحداً أبداً.. فهو يحيلنا إلى التقاعد فوراً.

- وإذا أصبحتَ متقاعداً.. إما ستتحمل.. ثرثرة الزوجة في المنزل وإما ستلقي بنفسك مثل الدجاج في مقهى الحارة.

هذا المدير لا يهمه شيء.. إنه لا يأبه بشيء.

- مفتش .. مفتش.. لا تخافوا.. إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً.. لا تهتموا للأمر كثيراً.

كان كل واحد يتحدث عن المفتشين وما عانى منهم.. وما فعلوه.. وحكايات وحكايات..

- في إحدى المرات جاء مفتش إلى دائرتنا القديمة.. الله يذكر بالخير سلمان أفندي أحد زملائنا كان قد نقله حتى (قيزل جاقجاق) وجعله يغلي القهوة في الدائرة.

- هؤلاء المفتشون ليس عندهم إنصاف أبداً.. في أحد المرات.. كان...

مهما تحدثنا عن المفتشين.. ومهما قلنا عنهم.. لم تتحرك شعرة واحدة في رأس المدير.. ماذا نفعل..؟ والخوف سيطر علينا فشمرنا عن سواعدنا وأرجلنا.. وبدأنا بتنظيف الدائرة بأكملها.. نعم نحن جميعاً خشينا أن لا ينتهي العمل إذا قام به الخدم فقط.. آمان.. كم كانت الأقذار كثيرة..! وضعنا ما جمعناه في العربات.. كان الغبار قد تكدس طبقات طبقات فوق الخزن والأشياء الأخرى.. وكانت الكتابات بالأصابع ظاهرة فوق هذا الغبار المتراكم.. بعضهم وضع إمضاءه.. والبعض الآخر كتب مذكراته.. إحدى الكتابات التي كتبت على الغبار فوق خزانة القرطاسية (خضر بن شعبان من قرية بولونجوك التابعة لمدينة سيواس من مواليد ١٣٣٠) وإذا بأحد الحجاب يتمسك بهذه الكتابة قائلاً:

- هذه ذكرى من أحد الأصدقاء القدامى.. لا أسمح لكم بإزالتها.

يا أخي من يأبه اليوم بالذكرى والذكريات.. المفتش قادم.. فإذا تعلقنا

بالذكريات تصبح دائرتنا كالمتحف.. فالجدران وجميع الأماكن ملأى بالكتابات.. نظفنا الغبار.. ورمينا الأقذار.. ومسحنا الجدران على أكمل وجه.. ودهنا الأبواب وقوالبها جيداً.. وبما أن كل واحد يبدي للآخر خوفه.. صار الحجاب يمسحون السلم كل يوم.. تفتحت أسارير الدائرة وأصبحت كالوردة الجميلة.. كل مكان يلمع.. سررنا كثيراً بما قمنا به.. قيل إن أحد المفتشين جاء إلى إحدى النواحي.. وأثناء قيامه بالتفتيش مدَّ إصبعه على علبة الآلة الكاتبة.. وسألهم:

ـ كم سنة مضت على وجود الغبار هنا؟

وعلى أثرها أوقف ترفيع الموظف المسؤول.

أما البستاني فقد.. أزال كل الأعشاب البرية من الحديقة.. وزرع مكانها الأزهار.

كانت المعلومات تصلنا تباعاً عن المفتش.. كان ينقل الموظفين الغائبين عن عملهم.. والذين يتأخرون عن الدوام. أما الموظفون الذين لا يعملون بجد ونشاط ولا ينتجون.. فيضعهم تحت تصرف الوزارة. بدأنا نحضر إلى الدائرة ليس في التاسعة.. وإنما منذ الثامنة صباحاً.

ـ آمان ولك أيها الزملاء.. ليجد كل منكم لنفسه عملاً ما.

ـ أخرجوا الجداول.

ـ جهزوا القيود.

لو كنتم ترون النشاط الذي دب فينا.. لا تسألوا عن ذلك أبداً.. كان المدير يوقع كل ورقة.. كل يجلس على رأس عمله.. وتوزعت الأقسام والشعب. وبدأنا بإرسال الرسائل إلى المقامات العليا.. كانت الأوامر تأتي تباعاً.. الآلات الكاتبة تعمل والأقلام لا تتوقف عن الحركة.. المسودات تكتب.. وتمسح.. واعتاد المواطنون الدخول إلى الدائرة لإنجاز معاملاتهم.. الطوابع.. التواقيع والأختام.. كل شيء عاد إلى ما كان عليه.

ـ خذ هذه الورقة إلى الغرفة الثانية.

ـ وقعها من الطاولة المقابلة قبل أن تحضرها إلي.

ـ ادفعوا الرسوم في الخزينة.

ـ أحضروا اثنتي عشرة صورة شمسية.

ـ هل وقع عليها رئيس القسم الثاني؟

ـ هذه الورقة بحاجة طابع مالي بمئتين وسبعين قرشاً.

ومن ناحية أخرى.. كانت الأخبار تصلنا تباعاً عن المفتش.. يقولون إنه يقلي ويحمص ويحرق الدائرة التي يذهب إليها.

صرنا نعمل أكثر من عشر ساعات في اليوم.. حتى أيام الآحاد كنا نقضيها في الدائرة ولا نستطيع إنجاز الأعمال.

وسمعنا أن المفتش سيحضر إلى دائرتنا يوم الأربعاء المقبل.. فبدأت الدائرة تعمل بشكل منقطع النظير كأنها خلية نحل حتى أن المواطنين شكلوا صفاً طويلاً كل واحد في دوره.. وأصبح من المستحيل إنجاز الأعمال تحت هذا الضغط.. إذا لم تتسع دائرتنا.. ويضعوا فيها موظفين جدداً.

ذهبنا إلى المدير وقلنا له:

ـ سمعنا أن المفتش سيأتي يوم الأربعاء إلى دائرتنا.

قال:

ـ ليأت.

ـ آمان يا سيد صفوت.. ليس هذا وقت المزاح.. لقد سمعنا من مصادر موثوقة أن المفتش أكيد قادم يوم الأربعاء.

ـ طبعاً لا يأكل بشراً.. فليأت إذا كان بوده المجيء.

ـ أكيد لم تشاهدوا مفتشاً من قبل يا سيدي..

ـ ولك روحي.. ماذا نفعل إذا كان المفتش سيأتي..؟ أفهموني.. ماذا نفعل؟

ـ أليس من المفروض أن نجهز له مكاناً للنوم..؟ ونقيم على شرفه وليمة ولو كانت صغيرة..؟

قال السيد صفوت:

ـ لا.. لا.. دائرتنا ليس فيها عشرة قروش حتى نقيم له وليمة.

هل ترون غير ذلك.. منذ شهرين ونصف نستعد على أن المفتش قادم.. ونحضر هذا وذاك.. سيأتي اليوم.. سيأتي غداً،، نحن ننتقل دائماً من عمل إلى عمل.. ويوم يأتي المفتش لن نقدم له وليمة أو طعاماً.. هذه الأعمال رذالة غير معقولة.. وإلا سيذهب ما قمنا به عبثاً.

جمعنا فيما بيننا مبلغاً صغيراً.. دفع كل منا عشر أو خمس ليرات.. كي نقيم للمفتش ليلة الأربعاء مأدبة طعام في (نادي التجار).

ليلة الثلاثاء لم أنم أبداً.. استيقظت باكراً.. حلقت شعري.. وفي الساعة السابعة والنصف جئت إلى الدائرة.. كان الزملاء قد حضروا قبلي.. وكلنا لبسنا أفضل ما عندنا من الثياب.

جاء المدير كعادته في التاسعة.. وصعد إلى غرفته.. والدائرة مليئة بالمواطنين الذين يريدون إنهاء أعمالهم.. حاولنا أن ننجز لهم أعمالهم بأسرع ما يمكن..

جاء وقت الظهر.. لا مفتش.. ولا من يحزنون..

هل سيأتي غداً يا ترى..؟

اتصلنا بنادي التجار وطلبنا منهم أن يؤجلوا المأدبة إلى اليوم التالي.. من غير المعقول أن تفسد الأطعمة في يوم واحد.. اتصل الزملاء إلى هنا

وهناك.. أرسلوا برقيات.. سألوا عن المفتش.. فأجابوا:

«من أين جئتم بهذا الكلام..؟ لا يوجد مفتش ولا سواه.. ولم يذهب إلى مكان آخر».

ـ ولك يا شباب ألستم أنتم من بلغتم هذا الخبر.

ـ هذه رذالة غير معقولة.

في تلك الليلة ذهبنا إلى نادي التجار وصارت الوليمة الفخمة لنا.. الجميع يتحدثون عن المفتش:

ـ لماذا لم يأت يا ترى؟

ـ متى سيأتي؟

ـ هل تريد أن يأتي على حين غرة ويصطادنا ونحن في غفلة من أمرنا؟

تحدث المدير الذي كان يضحك على الدوام:

ـ أيها السادة.. المفتش لن يأتي.. أنا الذي تعمد إيصال هذا الخبر عن قصد وأنا من أرسل تلك الرسالة التي نقلت خبر قدوم المفتش.

واي أيها الرجل المزيف.. واي.

قال:

ـ ماذا أفعل يعني..؟ لم أستطع التمكن منكم إلا بهذه الطريقة لأجعلكم تطبقون النظام.. وأصبحت مُرغماً على ابتداع هذه الكذبة.. والآن كما ترون فالأعمال تسير على ما يرام.

مرت مأدبة الطعام الفاخرة بسلام.. وفي اليوم التالي حاولنا إرجاع دائرتنا إلى حالتها القديمة.. ولكن من رابع المستحيلات لأن المقام العالي شعر بوجود دائرتنا لأنهم كانوا يرسلون أوراقاً بانتظام لنجيب عليها. ثم إن المواطنين والذين يطلق عليهم (أصحاب المصالح) اعتادوا المجيء إلى دائرتنا.

ومهما حاولنا تعقيد معاملاتهم لطردهم لم نستطع لذلك سبيلاً.. حتى أننا إذا أثقلنا بالكلام معهم كانوا يقولون:

ـ يا أفندي.. نحن ندفع ضرائب.. والمعاش الذي تقبضه هو من هذه الضرائب.. شوف شغلك.. وإلا أشكيك.. كانوا يقولون بأعلى أصواتهم.

ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن.. لم نستطع أن نفك ربطة رقبتنا من زحمة العمل.. وما شاء الله.. الأعمال تتسع يوماً بعد يوم.. وأصبحنا عاجزين عن إنجاز الأعمال المتراكمة.. كبرت الدائرة واتسعت.. وتم تعيين عشرة موظفين جدد.. وما زلنا بحاجة لأكثر. وكل هذا جاءنا عن يد من يسمي نفسه السيد صفوت.. مديرنا الجديد. ومنذ تعيينه إلى اليوم لم نر وجه المفتش ولكننا بقينا مجبرين على العمل.. كأن على رأسنا كل يوم مفتشاً جديداً.

والآن ندعو جميعاً قائلين:

ـ يا رب.. ابعث لنا مديراً مثل المدير القديم.. كي ينسينا العمل.. وينسينا المقام العالي.. ويخفف الأعمال عن كواهلنا ونعود كما كنا قبل مجيئه.

○ ○ ○

مرض البوسفور ـ بوغاز إيجه

في صباح أحد أيام الآحاد.. أخذت كتاباً من المكتبة لا على التعيين.. وكان الكتاب عبارة عن قصة للكاتب (سعيد فايق) بعنوان (سينا غريت بابا). ولسعيد فايق كتباً كثيرة والقليل منها لم يذكر فيها البحر والسمك والأعشاب البحرية.. كل حكاياته تقريباً لها علاقة بالبحر.

تناولت كتاباً آخر من مكتبتي.. وكان للكاتب (روشان أشرف) بعنوان (بوغاز إيجي) (البوسفور- أو داخل البوغاز). فتحت صفحة لا على التعيين كمن يبحث عن حظه أو بخته.. «كان صيادان في قارب.. ألقيا بصنارتيهما في البحر.. وكانت أصابعهما تبدو كأنها تنتظر خبراً.. وفيما هما على هذه الحال ممسكان بخيط الصنارة.. قال أحدهما للآخر:

ـ إن صيد السمك.. يشبه صيد المال والنقود.»

تركت الكتاب.. وفتحت الجريدة.. صفحة الحوادث: »في البوسفور تيار من السمك... تم التخلص من عشرة آلاف زوج من سمك.؟.؟.؟. التي تم اصطيادها بالأمس«.

وهناك إعلان لبائعي الأسماك: «أيها المواطن كل سمكاً».

في هذه الأثناء تماماً جاءني صوت من المطبخ يقول:

ـ ما رأيك لو نطبخ غداء اليوم سمك (الكالكان).. فالآن موسمه..؟

ألقيت بنفسي خارجاً كي لا أسمع كلمة السمك ففوجئت في الزاوية بصوت بائع السمك يصرخ:

ـ هذه الأسماك خواريف البحر.. إنها إنتاج المحيط.

وبينما كنت أنعطف نحو اليمين.. كانت الأصوات تصدر من ذكان بائع السمك:

- هاي.. يا والدي.. هاي.. هذا السمك غير أنواع الأسماك كلها.. إنه يرقص ويلعب كما ترى.

وصلت الجسر فدُهشت مما أرى..! أعداد كبيرة من قوارب الصيد امتدت على طول شاطئ الخليج.. حتى أنه يصعب عليك أن ترى سطح البحر.

نزلت إلى الميناء.. وعلى مدى كل خطوة في رصيف الميناء.. أناس جلسوا القرفصاء وفي يد كل منهم صنارة.. ينتظرون السمك.

فإذا ما علقت سمكة ما على الصنارة.. يبدؤون بسحب الخيط.. والسمكة المسكينة تتخبط في الهواء نحو كل الأطراف. وأشعة الشمس تتراقص على جسمها بانعكاسات جميلة.. وهي تفتح خياشيمها وتغلقهما بشكل مستمر.

ركبت السفينة.. وصعدت إلى سطحها. تحركت الباخرة.. كانت أفلاك الصيادين تملأ سطح البحر.. من رأس السراي حتى أوسكيدار.

قال الرجل الجالس قربي:

- هل تعرف يا بني..؟ إن أطيب الأسماك في العالم ما يخرج من بوغاز إيجي (البوسفور).. هل تدري لماذا؟

لم أسأله لماذا.. ولكنه شرح لي السبب:

- لأن نسبة ملح البحر الأسود يا سيدي أقل من ملح البحر الأبيض المتوسط.. لكثرة الأنهار التي تصب فيه.. فنسبة الملح في الليتر الواحد من الماء تعادل ثمانية عشر غراماً فقط. أما نسبة الملح في مياه البحر الأبيض المتوسط فتعادل أربعين غراماً.. لا أقول لك ذلك لأننا أولاد بلد واحد.

ـ شو يعني ابن بلد واحد..؟

ـ يعني.. أنا من أهل البوغاز.. ولا تحسبني أمتدح أسماكه لأننا من منطقة واحدة.. كان الفيلسوف أرسطو قد كتب هذا الكلام. إن أي نوع من السمك لا يضاهي سمك البوغاز.. حتى الجغرافي المشهور (سترابون) من أماسيا كتب هذا أيضاً. ثم إن العالم الروماني المشهور (بلين) ظل يمدح ويمدح أسماك الخليج دون أن ينتهي.

وكأن الرجل يقرأ من موسوعة كبيرة.. المواد المتعلقة بالسمك.

ـ هل أنت أستاذ في معهد الأسماك.

ـ لا ولك روحي.. أنا من استانبول.. ولكن أليس من المفروض أن يكون لدى الإنسان بعض المعلومات عن السمك. أرجوك ألا تعيب عليَّ سؤالي: من أين حضرتك؟

خجلت كثيراً.. ومن خجلي لم أستطع أن أقول له: إنني استانبولي المولد والمنشأ.. فقلت:

ـ أنا من (قونيا).

يا لطيف.. وبدأ الرجل.. الأسماك المائية اللذيذة.. أسماك البحيرات والسمك.. والسمك.

قلت:

ـ عن إذنك.. أريد أن أنزل في هذا الميناء.

تخلصت منه بصعوبة وذهبت إلى مكان آخر في السفينة. وهناك تعلق رجل بي قائلاً:

ـ هذا الموسم هو موسم (اللغركين).. وهو من أفضل أنواع أسماك البوغاز.

وبدأ الرجل بتسمية أنواع السمك (.؟.؟.؟. كفاك إليريا لوفر صاري

كنات جينا كوب بلموط توريك استيواريت اوسكومرو كالكان غوموش /الفضة/ آنش /النار/ كوليوس همسي /السردين/ كيرلانكيج /السنونو/ غلينجيك /العربة/ إيسكوبريت قايا بيسي قرة كوز /العين السوداء/ باربونيا سيناغريت تاكير قيليج /السيف/.

عندما كنت أهرب منه نحو مقدمة السفينة.. كان الرجل يعدد أنواع السمك وإذا بشاب يشير بإصبعه نحو البحر ويقول لي:

ـ ألا ترى السيف (قيليج)؟

وبدأ بالكلام.. دون أن ينتظر جوابي:

ـ هاي أيها الأسد.. إنه ملك البحار.. هذه الأسماك التي تسمى بالقيليج.. لا تخاف شيئاً أبداً.. ألا تعرف الحوت..؟ إنها تهاجمه حتى أنها تلعن أم العيون الزجاجية لسمك (التاسترا).. أنها تسبح بسرعة هاااا.. تهاجم السفن ولقوة سرعتها تتكسر أذنابها.. وتضرب بسيفها القوارب الخشبية.. وفي بعض الأحيان تثقب القارب والمحرك وتغرقه.. انظر إلى السفن التي تدخل الحوض.. ترى آثار السيف على أطرافها.. هذا السمك لا يخاف إلا من نوع واحد من الحشرات يسمى (لارنا) له قشرة قاسية.. إذا ما دخل تحت جناح السيف.. تجن السمكة المسكينة.. وتلقي بنفسها على الشاطئ.

ولم أستطع أن أقول للرجل: «كفى ثرثرة ولك أخي».. وظل يتحدث عن قيليج /السيف/.

ـ وسيف البوغاز عندنا من أضخم الأنواع على الإطلاق.. يصل وزنها حتى مائة كيلوغرام بعض الأحيان.. ويقولون إن هناك نوعاً منها حول جزيرة صقلية.. يصل طولها إلى سبعة أمتار وتزن مائتي كيلوغرام.

لو أصغيت إليه سيظل يتحدث عن السيف وأنواعه بمعلومات تصلح لملء كتاب كامل.

ـ هل أنت صياد؟

ـ نحن نعيش في استانبول.. ومن المعيب علينا ألا نعرف جميع أنواع الأسماك.

قلقت:

ـ أنا سأنزل في هذا الميناء.

هربت إلى الصالون فوراً.. وجلست قرب امرأة مسنة.. وإذا بها تبدأ بالحديث:

ـ صيد السمك ليس مهارة يا ولدي.. بقدر المعرفة والمهارة في طبخه مثلاً.. خذ سمكة ازماريت.. هل تعرف كيف يطبخونها..؟

انظر.. سأعلمك الطريقة.. فإذا تعلمت طريقة الطبخ.. تجد فيها لذة كبيرة يا ولدي.. ولكن الشرط الأساسي أن تخرج رداءه الداخلي..

ـ أنا لا ألبس رداء داخلياً أسود يا خالة.

ـ ليس ثيابك يا ولدي. بل قربة (الإزماريت).. تنزع قربتها.. وتطليها بالطحين جيداً.. وتغمرها بالبيض.. ثم تقليها بزيت الزيتون الحامي بشكل جيد.. فتناسب فمك.. وتصبح مثل الفطيرة.. ثم بعد ذلك سمك (الإيسكوربيد).. هو الآخر يكون طيباً ولذيذاً.. فقط يجب أن تعرف طريقه قليه وطبخه.. فنساء هذا الزمن الناعمات المدللات لا يعرفن طبخه ولا يعرفن أي شيء.

مذاقه ولذته مثل مذاق (الإستاكوز).. وخاصة الطازجة.. والله لا تشبع من أكله أبداً.. لو أطهو لك (طاجة) ايسكوربيد.. الله يعمي بصري لتأكل أصابعك معه.. سأشرح لك الطريقة اسمعني جيداً.. تذهب إلى البيت وتعلمها لزوجتك حتى تطبخها لك.

ـ أنا نازل في هذا الميناء.. أستودعك الله..

انتقلت إلى منطقة العلم في الباخرة. وهممت بالجلوس.. وإذا برجلين يتحدثان:

ـ لا يوجد ساحة أفضل من ساحة كوليانوس أبداً.

ـ الحارة جديدة ساحتها جديدة أيضاً.

ـ وما رأيك بساحة (بابك بيكوز)؟

هربت إلى مكان قرب الميناء.. وهناك أيضاً سمك..

ـ إن موسم الكالكان يبدأ من ١٥ نيسان وينتهي في ١٥ حزيران.. أما سمك السيف (قيليج) يبدأ مومسمه ما بين حزيران وآب.

ـ عندما يدخل شهر أيلول.. يبدأ موسم (لوفر).

ـ أما سمك (أوسكومولو) المشحم ففي تشرين الأول.

حاولت المستحيل كي أجد مكاناً أجلس فيه.. بعيداً عن حديث الأسماك فلم أتمكن. بقيت واقفاً. ثلاثة أشخاص واقفون مثلي. الشكر لله لا يتحدثون عن السمك بل عن السياسة:

ـ وجدت نفسي مضطراً للاستقالة من حزبي يا سيدي.. وعندما خرجت من الحزب.. أصبحت مثل السمك الذي يخرج من البحر.

ـ ولك أخي.. ألا يقولون إن السمك يعفن من رأسه.

ـ انتهى.. أنا شخصياً قطعت الأمل نهائياً من الديمقراطية.

ـ عندما تصعد السمكة شجرة الحور.. تأتي الديمقراطية إنشاء الله.

توه.. السمكة دخلت السياسة أيضاً.. نزلت إلى آخر صالون في الباخرة.. وبما أن الجو حار.. لم أر أحداً. وقبل أن تتعود عيناي على الظلام.. إذا بصوت يقول:

ـ ما شاء الله (هذه السنة في سمك كثير).

نظرت.. وإذا بشخص عجوز.. مسن.. يتحدث إلى جليسه:

ـ أنا لا أنزل للصيد قبل حلول شهر حزيران.. نعم إلا في حزيران وتموز. أنا الآخر قررت أن أذهب إلى صيد سمك النار في الليل. ويسمون تلك السمكة بـ (مطفئ المنقل).. تشبه السنونو.. ألوانها متعددة.. وأفضل مكان لصيد تلك السمكة.. هل تدري؟ أمام (آهير كابي).. وأمام قصر (دولما بهجة). لكل سمك مكانه المخصص في البوغاز يا ولدي.. مثلاً.. سمك (الأوسكومرو) تتجه من (يني كابي) إلى (قينالي) وتجعل قلعة ثكنة السليمية هدفاً لك.. وعندما تصل بين القلاع السبعة (كولا غازها ناسي) وقلعة (السليمية).. عندها تنظر إلى برج بيازيد.. وعندما تشاهد شرفة القلعة.. ارم الصنارة.. هناك ملجأ أو مخبأ أو مكان نوم سمك (أوسكومرو).

في القديم كان هناك شيخ للصيادين اسمه آرتين.. طيب الله ثراه.. صدق أو لا تصدق.. كان يعرف كل عناوين السمك.. في غالب الأحيان كنا نعود فارغي الأيدي من الصيد.. أما هو فكان يعود وكأنه أعطى موعداً للسمك لينتظره هناك فيحمله ويعود.. ماذا تقول بهذا الأمر..؟ الرجل مات ولم يعط حتى لابنه عناوين السمك.

بما أنه لم يبق مكان في الباخرة لأهرب إليه.. أصبحت مضطراً للاستماع. سألته:

ـ هل أنت صياد؟

قال:

ـ لا أنا عقيد متقاعد.. الأسماك تستطيع أن تجدها.. في الربيع والخريف.. وعندما تنتقل من البحر الأسود إلى بحر مرمرة.. عندها..

ـ أليس هناك كلمة أو جملة ليس فيها سمك.

وإذا بالعقيد المتقاعد يغضب:

ـ وهل للكلام طعم أو معنى دون كلمة السمك؟.. طيب إن أردت سأحكي لك قصة ليس فيها سمك: يقال إن صلاح الدين الأيوبي.. أدخل درويشين إلى قصره كضيفين.. وكما هو معلوم إن الدراويش يعيشون على السبحانية والزهد لا ينظرون إلي الحرام.. فعمد السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى تغذيتهما غذاء جيداً بالعسل واللحم والسمن والحلويات.. إلخ.. لعدة أيام.. وكان الدرويشان يأكلان ويشربان ويجلسان ويسمنان.. عندما رآهما السلطان على هذه الحال.. أرسل لهما جاريتين وطلب منهما أن يخرجا الدرويشين من تنسكهما كخادمتين. فبدأتا بالغنج والدلال.. ولكن الدرويشين لم يلتفتا إليهما أبداً.. حتى أنهما لم يلتفتا صوبهما.. عندها وضع صلاح الدين الأيوبي أمام كل درويش سمكة واحدة من السردين الصغير.. وما أن التهم الدرويشان السمكتين الصغيرتين.. والتي لا يتعدى كبر الواحدة منهما إصبعاً واحداً.. لم يستطيعا التحمل.. فهجما على الجاريتين ولم يتركا صوفيتهما وطهرهما فحسب بل اتبعا إغواء الشيطان.. لم يعد يكفيهما لا جارية واحدة ولا أربع.. هذا هو السمك.

ـ عن إذنك سأنزل هنا.

نزلت في حي (البابك).. وقصدت أحد المطاعم الساحلية وقلت للنادل:

ـ ماذا لديكم؟

بدأ النادل بالعد:

ـ قريدس.. يخنة قريدس.. محشي قريدس.. محارة تازة.. الكافيار.. دهن السمك.. سمك فوما..

لم أقل للنادل: (أليس عندكم طعام دون سمك؟) فبعد أن قص العقيد المتقاعد تلك القصة قلت للنادل:

ـ آمان.. أريد من كل نوع صحناً صغيراً.. ولا تنس السلطة..

وبعد ذهابي إلى البيت شربت كأساً من زيت السمك..

ولا تنسوا ما حصل معي بعد ذلك..!

○ ○ ○

الحيوية.. النظام

كان زواجنا عن حب وتفاهم. ولم يكن هناك ما يعكر صفو حياتنا الطبيعية.. وهذا هو ما يجب أن يكون.

المشاجرة الأولى بيننا بدأت بسبب جابي الغاز.. في أحد الأيام رُن جرس الباب.. وقبل أن نفتح الباب سمعنا صوتاً في الخارج:

ـ غاز.. غاز.

فتحنا الباب.. فلم نجد أحداً.. وكانت فاتورة الغاز على الأرض.

بعد الظهر جاء جابي الحراس.. وقطع فاتورة بمبلغ سبع ليرات ونصف عن ثلاثة شهور وهي: كانون الثاني شباط آذار.. أعطيناه المبلغ وذهب الرجل.

عند المساء جاء جابي (تريكوس) .. أعطيناه إحدى عشرة ليرة.. وبعض القروش.

في ذلك اليوم لم نفهم لماذا حصل ما حصل.. ومع الصباح جاء جابي الكهرباء وقال لنا:

ـ سنقطع التيار عنكم..

لم ندر ماذا أصابنا.. قالت زوجتي:

ـ ولك أخي دفعنا فاتورة الكهرباء.

الجابي:

ـ لم تدفعوا.

أصرت زوجتي على كلامها معاندة الجابي:

ـ دفعنا.

زوجتي التي رأتني واقفاً بثقة قالت:

ـ ولك روحي.. لماذا لا تقول بعض الكلام أنت أيضاً..؟ ألم ندفع فاتورة الكهرباء..؟

ـ نعم إني أتذكر.. الأسبوع الماضي.. على الأغلب كان يوم الثلاثاء.. نعم دفعنا ذلك اليوم.

ـ لو دفعتم لكانوا سجلوا هنا.

ـ أليس من العادة أن ترسلوا إنذاراً..؟

ـ كم إنذاراً سنرسل يعني..؟ أرسلنا إنذاراً بورقة بيضاء.. لم تدفعوا.. وبعد خمسة عشر يوماً أرسلنا إنذاراً.. لم تأبهوا للأمر.. وبعد ذلك أرسلنا لكم الإنذار الأحمر والذي تنتهي مدته بعد ستة أيام.. أيضاً لم تدفعوا..

صرخت زوجتي بغضب:

ـ أقول لك دفعنا.

قال الجابي ببرود:

ـ إذا دفعتم فأروني فاتورتكم.

أما أنا فقلت:

ـ الرجل معه حق.. هيا أحضري الفاتورة.

أسرعت زوجتي إلى غرفة النوم وفتحت درج الطاولة وقلبت الأوراق.. نظرت إلى طاولة (التواليت).. وعندما كانت تقلب أغراض محفظتها.. صرخت:

ـ هذه هي.. هنا.

قدمت الورقة التي فيها طابع مالي إلى الجابي.. فرحت كثيراً لأننا

جعلنا الرجل يخجل.. وانتهرته بقوة:

- يا سيد.. نقول لك دفعنا.. هل نحن من أولئك الذين يكذبون من أجل بضعة قروش قيمة فاتورة الكهرباء؟

أخذ الجابي الورقة التي ناولتها له زوجتي ونظر إليها بدقة.. ثم أدارها ونظر إلى قفاها.. وقال لزوجتي:

- يا سيدتي.. ليلة الخميس الماضي ذهبت إلى سينما الملاك الجديد.. وجلست في الصف B والمقعد رقم ١٨.

تعجبت زوجتي:

- ومن أين عرفت ذلك؟

قال الجابي:

- من الورقة أو البطاقة التي أعطيتني إياها.. أعطيتني بطاقة السينما بدل فاتورة الكهرباء.. وفيها طابع البلدية المالي لا طابع الجمعية.. وهذا موجود هنا.

مدت زوجتي يدها مرة ثانية إلى محفظتها.. كان وجهها قد احمر خجلاً.. ولكنها وجدت فاتورة الكهرباء هذه المرة. أعطته الورقة وقالت:

- تفضلوا..

فقال الجابي الذي أخذ الفاتورة:

- نعم.. نعم أنت ركبت حافلة البلدية التابعة (لقاضي كوي) ولكن إذا أردت الحقيقة لم أفهم تاريخها.. لا يوجد تاريخ في البطاقة.

وفيما نحن على هذه الحال بين المد والجزر مع جابي الكهرباء.. وإذا بشخص يقترب منا.. يحمل بيده محفظة قديمة مرقعة وقال:

- مصاري الزبل..

- شو..؟ ما هذا الكلام..؟ ما معنى ذلك..؟

ـ ضريبة التنظيفات.. ضريبة العام الماضي.

اعترضت زوجتي:

ـ ولكننا لم نسكن هنا العام الماضي.. نحن لم ننتقل إلى هنا إلا قبل ثلاثة شهور.

قال موظف الضريبة:

ـ أين عقد البيت؟

تدخل جابي الكهرباء قائلا:

ـ قبل كل شيء لننته من عملنا.. هل ستدفعون..؟ أم نقطع تيار الكهرباء عنكم؟

دفعنا فاتورة الكهرباء وتخلصنا من الجابي.. وبعد بحث دام نصف ساعة.. أخيراً وجدت زوجتي العقد ـ بلطف من الله ـ قدمته إلى جابي البلدية للتنظيفات وقالت:

ـ انظر.. لم تكتمل بعد الشهور الثلاثة لانتقالنا إلى هذا المنزل.

قرأ الجابي الورقة بدقة.. أمامها وخلفها.. ثم قرأها ثانية.. ثم قال لزوجتي يسألها:

ـ هل أنت مسرورة؟

ـ من أي شيء سأكون مسرورة؟

ـ من برادك؟

أحسست أن من واجبي التدخل كوني رب ورجل هذا البيت فقلت للجابي كي أوقفه عند حده:

ـ رجاء يا سيد الجابي.. دعنا في الضريبة.. وما علاقتك إن كانت زوجتي مسرورة من برادها أم غير مسرورة..؟ ثم إن هذا الأمر خارج نطاق عملك وليس من وظيفتك.

قال الجابي:

ـ أنا أيضاً أفكر مثلك.. والحقيقة أنكم عملتم عين العقل وربحتم عندما اشتريتم براد الخمسة أقدام.. بثلاثة آلاف ليرة.. وخاصة بالتقسيط.. وماركته؟.؟.؟.؟ أمريكي الصنع.. ألف ليرة عداً.. والباقي ٢٥٠ل في كل شهر. حتى أنكم دفعتم قسط شهرين.. إذن أنتم مازلتم مدينين بألف وسبعمائة وخمسين ليرة.

قال زوجتي:

ـ ومن أين عرفت كل ذلك؟

أجبتها بدلاً من الجابي:

ـ حتى أبي يعرف ذلك.. إذا أعطيته سند البراد على أنه عقد الإيجار.

في ذلك اليوم لم تجد زوجتي العقد.. فقال الجابي:

ـ سأمر بعد يومين أو ثلاثة.. حتى ذلك الحين جهزوا العقد كي أراه.

بعد ذلك اليوم لم يبق للبيت طعمه ولا حلاوته ولا ملوحته. من الواجب أن يكون هذا الوقت من أحسن الأوقات حلاوة وملوحة بالنسبة لبيتنا.. كنت قد أخذت إجازتي السنوية.. عند الزواج لم نذهب إلى أي مكان لتمضية شهر عسل.. ولكننا قضينا أيام زواجنا الأولى في البيت.. كرجل وامرأة.. وبسعادة مطلقة.

بعد عدة أيام جاء صاحب البيت ليأخذ الإيجار.. كان كل شيء قد خرب كلياً.. أدخلنا صاحب البيت إلى غرفة الضيوف.. كان الرجل يشرب قهوته.. دفعت الإيجار.. في هذه الأثناء.. أحضرت زوجتي عقداً ليوقعه صاحب البيت على أنه قبض حقه في الإيجار.

ـ بالأمس بحثت عن هذا العقد كثيراً ولم أجده.. مع أنه كان في مكان ظاهر جداً.

سألتها:

ـ وأين كان يا زوجتي..؟

ـ وجدته تحت الفراش.

ـ آمان بالله عليك.. لا تغيري مكانه.. ضعيه في نفس المكان.. عندما نحتاجه.. نجده على الفور.

قال صاحب البيت:

ـ ولكن هذا موقع.

قالت زوجتي:

ـ وكيف حصل ذلك..؟ يعني إنك وقعت عليه قبل أن تقبض الإيجار؟.. لا لم توقعه.

ـ أنا لم أوقعه.. ولكنه موقع من قبل المستأجرين القدامى قبل ستة عشرة عاماً.

لم أفهم ماذا يحصل.. هل هي لعبة لعبها صاحب البيت أم ماذا؟

فقال صاحب البيت:

ـ ما كنت أعلم أنك من خريجي الكلية السياسية.

نظرت إلى زوجتي نظرة صاعقة وصرخت في وجهها:

ـ هل كنت تحاولين أن توقعي صاحب البيت على شهادتي؟

تغير موقف زوجتي.. وأي امرأة مكانها لتغيرت وزعلت.. وفيما هي على هذه الحال من الزعل.. شغلت رأسها مثل ساعة وقالت:

ـ الآن.. وقع على ورقة بيضاء.. وغداً عندما نجد العقد.. نمزق الورقة وتوقع عليه.

بعد ذهاب صاحب البيت جاء جابي (تروكوس).. فاختلطت الأوراق

والأمور ببعضها كلياً.. في هذه المرة قالت زوجتي:

ـ نحن دفعنا فاتورة (تروكوس) منذ مدة قليلة.. وتمسكت بقرارها.. وأخرجت من جيب تنورتها عدة أوراق أو بطاقات ركوب (الترامواي) وقدمتها للجابي.

لم أعد أتحمل.. قلت لها بعد أن ذهب الجابي صارخاً:

ـ حاجة بقى ولك.. هذا الكلام غير معقول.. عبارة عن عدة أوراق.. تخلطينها فيما بينها.. وتحرجيننا أمام كل هذا العالم.

صرخت زوجتي وهي في حالة انفعال أكثر مني:

ـ كيف يعني؟ هل تقول بضعة أوراق..؟ ما شاء الله عليك.. أعمل منذ الصباح حتى المساء في تنظيف البيت وطهي الطعام.. ولا أجد وقتاً أرتاح فيه وتطلب مني أن أرتب هذه الأوراق أيضاً..؟ ماذا تقول..؟ ورقتين ثلاثة.. أين هي؟ انظر.. كل ورقة بحاجة إلى ملف خاص وإلى محاسب ليقوم بتسجيلها.

قلت:

ـ أنا لا أريد شيئاً.. فقط قبل كل شيء نظفي جيوبك ومحفظتك من أوراق الترامواي وبطاقات السينما والقطار والحافلات.

في تلك الليلة حاولنا جاهدين.. كرجل وامرأة أن ننظف جيوبنا وخزانتنا ومحفظتينا.. من كل الأوراق الفارغة.. فخرج من جيبي معرض ثمين من بطاقات الحافلات والقطارات والسفن والطائرات.. والملاعب وسباقات الخيل.. والحفلات الموسيقية.. والمسارح..

قالت زوجتي فرحة:

ـ آمان.. هذه البطاقات من أثمن البطاقات.. فهي ذات قيمة تاريخية.

قلت لها:

ـ أبعدي كل هذه الأوراق عن رأسي.. ضعيها في علبة القمامة.. خلص.. لقد ضقت ذرعاً من إعطاء الجباة بطاقات السينما والقطار والترامواي.

لم نستفد شيئاً من هذه النظافة أيضاً.. في اليوم التالي.. عندما ذهبنا إلى المصرف لنضع في حسابنا بعض النقود.. أعطت زوجتي دفتر الحسابات العائلية للموظف.

قالت الموظفة:

ـ أشكرك جزيل الشكر.

حسبنا أن الفتاة تشكرنا لأننا نضع مبلغ مائتين وخمسين ليرة خلال شهرين.. قال زوجتي:

ـ أشكرك.

ـ اسم زوجك حسن.. وكنيته دوزنغيل.. عقدت نكاحك في دائرة الزواج في حي باي أوغلو ١١شباط.

قالت زوجتي:

ـ المعذرة.. أعتقد أنني أخطأت فأعطيتك دفتر العائلة بدلاً من دفتر الحسابات..

مدت يدها هنا وهناك.. إلى جيوبها ومحفظتها.. وطرحت كل ما خرج من محفظتها.. ومحفظات أخرى صغيرة.. هويتها.. وهويتي.. شهادة دراستها الثانوية.. والشهادة التي أخذتها من المعهد النسائي المسائية.. ولم يظهر دفتر الحسابات المصرفية.

خرجنا من البنك.. خافضي الرؤوس.. نعم.. هذا الخجل نستطيع أن نسميه خجلاً حقيقياً.. في تلك الليلة قلت لزوجتي:

ـ انظري يا ضناي.. أشعر أن أساس بيتنا يتداعى رويداً رويداً بسبب

هذه الأوراق والبطاقات.. وما فهمته هو أنك لن تستطيعي أن تكوني رجلاً.. لقد عملت طويلاً في مديريات الحسابات.. وأجيد فتح الملفات والقيام بكل الأعمال الحسابية.. رجاء اتركي هذا العمل لي.

زوجتي الحبيبة لم تعارض أبداً.. حولت كل الأوراق ووضعتها تحت تصرفي.

وما حصل في اليوم التالي بعد اتخاذنا ذلك القرار: كان جابي الكهرباء يستند إلى بابنا قائلاً:

ـ فاتورة الكهرباء.

قلت:

ـ دفعنا.

قالت زوجتي:

ـ ما دفعناه ضريبة النظافة وليس فاتورة الكهرباء.

ـ كلاهما ضريبة واحدة.. تؤخذ لمرة واحدة.

ولكن عبثاً بحثت عن فاتورة الكهرباء..

بعد الظهر ذهبت إلى البريد لأدفع ضريبة المذياع.. وهناك توصلت إلى قناعة بأنني أنا الآخر لن أستطيع أن أقوم بهذا الشيء أيضاً.. فقد أعطيت الموظف عقد إيجار البيت بدلاً من دفتر ضريبة المذياع.. قال الموظف:

ـ إنشاء الله تسكن بأمن وسلام؟

قلت:

ـ جئت كي أدفع ضريبة المذياع.

قال موظف البريد:

ـ إيجارك رخيص جداً.. أربعة غرف وصالون وبانيو ومطبخ بمئتي

ليرة..؟! والله رخيص جداً.. ولكن أرى أنك لم تدفع إيجار منزلك في الشهر الماضي.

قلت:

ـ دفعنا.. دفعنا.. ولكن عند الدفع لم نجد عقد الإيجار.. وقد أخذنا من صاحب البيت ورقة أخرى.. أو وصلاً آخر.

قال موظف البريد:

ـ آمان.. (دير بالك).. لا تضيع عقد الإيجار..

ومد العقد نحوي..

كنت سأستمر باستلام هذه الأمور بنفسي لو لم يأت الحارس ويطلب بدل حراسته.. ففي ذلك اليوم قدمت له بطاقة اليانصيب التي اشتريناها في رأس السنة.. بدلاً من فاتورة الحراسة.

قلت لزوجتي:

ـ هذه الوظيفة ليست من اختصاص الرجل.. بل المرأة.. لقد قمت من جهتي بتسوية الملفات.. وتنظيمها.. ولكن عليك متابعة جميع الأمور.. إليك الملفات جميعها: هذا الملف يتضمن عقد الإيجار وفاتورته. وهذا لضريبة التنظيفات والكهرباء. وهذا ملف الأقساط الشهرية التي ندفعها. وهذا الكهرباء والغاز.. وهذه بطاقات السيارة والراديو..

كانت إجازتي السنوية قد انتهت.. وعدت إلى عملي. وفي إحدى الأمسيات رجعت إلى البيت فلم أجد زوجتي.. لقد تركت رسالة وضعتها فوق الطاولة:

«حبيبي..

إنني أحبك من كل قلبي.. وسأظل أحبك إلى آخر عمري. ومع هذا أنا مرغمة على ترك عشنا العائلي.. أصابتني الحيرة من زحمة هذه الفواتير

والسندات والعقود.. لشدة انشغالي بهذه الملفات لم يبق لدي وقت، أحضر لك الطعام..

وبما أنني لا أستطيع أن أعتني بك جيداً.. وبصراحة أكثر لم يبق لدي وقت كي أغسل وجهي.. واليوم تشاجرت ثانية مع جابي القمامة.. فقد أعطيته فاتورة الغاز ظناً مني أنها الفاتورة المطلوبة.. وهو الآخر سخر مني وجعلني أدفع ثمن الغاز لساكني الطابق الأرضي.

أرجوك فأنا لا أستطيع القيام بهذا العمل.. حتى إنني فكرت بالانتحار.. وكي لا أجعلك تتعذب تراجعت عن فكرة الانتحار.

آه يا روحي.. يا حبيبي.. يا حياتي.. أتمنى أن تكون قد فهمت ما أعاني منه وفضلت ترك عشي الجميل بدلاً من إصابتي بالجنون بسبب الفواتير والسندات.. وإن قلبي يتقطع ألماً.. بعيداً عنك.. الوداع.

أثناء خروجي من البيت.. دفعت شهرية البواب.. ووضعت الفاتورة فوق المذياع.

نرمين التي ينبض قلبها من أجلك فقط.»

لعن الله الشيطان.. من أجل بضعة أوراق قضينا على حياتنا العائلية.

أخذت الورقة التي كانت فوق المذياع لأضعها في ملف البواب.. آمان.. ماذا أرى..؟ لقد تركت بدل فاتورة البواب.. فاتورة قديمة بنفس التاريخ..! فضحكت وضحكت..

المتزوجون اليوم.. يجب أن يأخذوا درساً من هذه القصة..

لا يحتاج البيت.. لا إلى بواب ولا لخادمة.. ولا لطاهي.. ولا إلى حارس. قبل كل شيء.. كلفوا محاسباً بدلاً من كل هؤلاء يأتيكم في الأسبوع مرة ليصنف الفواتير.. كي لا تبقى بيوتكم في حالة فوضى دائمة.

○ ○ ○

صدر كتاب السيد حسن

من الصعب عليكم أن تفهموا مقدار فرحي في تلك الليلة وخاصة إذا كنتم لا تعملون بالكتابة والنشر.. في ذلك اليوم.. بقيت أنتظر حتى المساء.. عسى أن أقبض بعض القروش من مكان ما.. ولكن.. عبثاً.. ذهبت إلى الجريدة التي ستنشر رواياتي.. قالوا إنهم وضعوا كل ما يملكون لشراء الورق.. قصدت مقر المجلة التي تنشر قصصي القصيرة.. قالوا:

ـ هذا اليوم لا ندفع فيه لأحد.

مررت بالجريدة التي أكتب فيها الطرائف والنكت.. قالوا:

ـ لقد سحبت قسماً كبيراً من السلفة.. لا نقدر أن نعطيك أكثر.

اتجهت إلى دار النشر التي سيطبع فيها كتابي.. وهناك أيضاً.. لم أحصل ولو على قرش واحد.

في الوقت الذي انطفأ فيه ضوء النهار كنت موجوداً على ضفة الخليج الملوث بالفضلات.. وتفوح منه الروائح الكريهة.. كانت آمالي كلها قد ضاعت دفعة واحدة (رجاء تقبلوا مني هذه الكلمات الشعرية).

بينما كنت نازلاً في جادة أنقرة وأنا متضايق جداً من وضعي المادي وألعن من ابتدع المال وأبا المال.. وإذا بصوت يناديني من الخلف:

ـ السيد حسن..

شخص لا أعرف اسمه ولا كنيته ولا ماهيته.. ولكنني كنت أراه كثيراً.. نسلم على بعضنا كثيراً.. قال الرجل:

ـ منذ عدة أيام وأنا أبحث عنك.

إذا لم يكن الباحث عنك.. النيابة أو البوليس.. أو موظفي التنفيذ.. أو الدائنين.. فالبحث يكون جميلاً.

واستطرد قائلاً:

ـ نحن سنصدر مجلة.. ونطلب منك بعض القصص والكتابات.

شعلة من الأمل أضاءت أعماقي.. ولا أستطيع أن أفسر لكم ماهية هذا الأمل الذي انتابني آنذاك.. وضعت فوراً محفظتي الممتلئة بالأوراق إلى ركبتي.. وأخرجت كتاباتي.. وبدأت أمدحها:

ـ أي نوع من الكتابة تريد..؟ هنالك قصص تتعلق بالعشق والغرام.. وهذه الكتابات خاصة بالمغامرات.. وعندي كتابات عادية.. وإن كنت تريد قصصاً.. عندي منها الكثير. قصص معتبرة.. بكل معنى الكلمة.. هل تريد شعراً..؟ فهو موجود أيضاً.. إن كانت مجلتكم أدبية.. فأعطيكم بعض الأبحاث في النقد. أما إن كانت فكرية فيوجد لديَّ كتابات نقدية. أما إذا كانت اجتماعية (magazin). أعطيك كتابات (سيكولوجية).

احتار الرجل تماماً.. أمام كثرة المال المقنَّع الذي أملكه.. مع أنني كنت أستطيع بيع محتويات المحفظة كلها بعشر ليرات.

أفضل قصة المغامرات.. شرحت له موضوع القصة.. فانفعل الرجل تماماً.. ولا أدري إن كان شرحي سبباً في انفعاله.. المهم.. أخذت منه عشر ليرات ووضعتها في جيبي..

ما أفرحني كثيراً هو ما تلا ذلك.. عندما وصلت الجسر كان باعة الجرائد يصرخون باسمي.. فالكتَّاب يحبون أن يلهج الناس بأسمائهم.. اسمك يدوي في كل مكان.. كان الباعة ينادون بأعلى أصواتهم.. يريدون بيع كتابي.. هل قلت لبيع الكتاب..؟ هكذا كانوا يفعلون.. ولكن ما من أحد يشتري كتاباً.. أو يولي اهتماماً للأمر.

ـ صدر كتاب السيد (حسن يا زمان).

كان باعة الجرائد ينادون هكذا.. في كل مكان.. وخاصة في ميناء (قاضي كوي) القريب من المدينة.

لم أتمكن من السيطرة على شفتي.. فُتح فمي فجأة وتوسع.. حاولت أن أخفي فرحتي كي لا يراني أحد على هذه الحال فيعيب عليَّ.. ولكن ما باليد حيلة.. فالأصوات التي تصل مسامعي تمنعني من إعادة شفتي إلى حالتهما الطبيعية لشدة الفرح.. وكأن كل شفة من شفتي بقوة سبعة أحصنة.. انفتحتا عن بعضهما ولم أستطع ضمهما.. ولما عجزت عن السيطرة على شفتي.. على الأقل.. يجب أن أغطي أسناني.. بيدي.. كي لا يراني أحد.

هل تلومونني.. لست أدري..؟ لنفرض أن كتاباً صدر لأحدكم كما حدث لي.. وباعة الجرائد ينادون بأعلى أصواتهم باسمكم.. يحاولون جاهدين بيع كتابكم.. ماذا يحصل لكم آنذاك؟ هل تفرحون أم لا؟ من السهل على الإنسان أن يسخر من الآخر وهو ينظر إليه عن بعد دون أن يعرف ما في قرارة نفسه.

صاح بائع الصحف وكان على مرمى سمعي:

- صدر كتاب حسن يازمان..

ورغم بشاعة صوته فقد ترامى إلى مسمعي أنه من أجمل الأصوات التي أسمعها في حياتي.

- صدر كتاب حسن يازمان.

اسمي واسم كتابي على جميع الألسن.. ولم أشعر أنني وسط ذلك المكان المزدحم في قلب المدينة قريباً من الميناء والجسر.. بل وسط غابة تداعبها النسمات الدافئة الرائعة.. وتصدح من حولي أصوات البلابل الذهبية.

- صدر كتاب (حسن يازمان).

أقف لوهلة.. أرتاح.. ثم أقف.. لأنصت إلى تلك الأصوات.. وأتلفت من حولي.. هذه هي السكرة الحقيقية.. وما ألبث أن أغضب من هؤلاء الناس.

كل هذا الازدحام.. ولا أحد يعير أي انتباه لأصوات باعة الجرائد.. ماذا تقولون؟ حتى أنهم لا يلتفتون نحو مصدر الصوت.. كل واحد يسير في طريقه.. مرات كثيرة حاولت أن أصرخ في وجوههم:

- هل أنتم صمٌّ..؟ ألا تسمعون..؟

ولك يا عباد الله.. ألا يقول أحدكم في نفسه: «ماذا كتب هذا الإنسان.. حسن يازمان في كتابه يا ترى؟».. ويشتري كتاباً..؟

والله لا يشترون.. لنقل إنكم لم تشفقوا على حسن يازمان هذا.. ولكن ألا تشفقون على باعة الجرائد الذين جفت أفواههم وبحت حناجرهم من الصياح والصراخ؟ آه منكم ومني.. لم يبق في قلوبكم ذرة من رحمة أو شفقة.. أو إحساس. لا يشترون.. ولا يسألون.

لم أتمكن من مغادرة المكان.. كانت صرخات الباعة قد سحرتني كلياً.. وفي الوقت نفسه.. أخاف أن يراني أحد من معارفي ويسخر من تصرفي هذا.

نحن لا نقرأ يا سيدي.. وإذا لم نقرأ ماذا يحصل؟ هل يتقدم هذا البلد؟ بكل تأكيد لن يتقدم.. وفي لا نستطيع التقدم خطوة واحدة نحو الأمام الميناء من شدة الازدحام.

لو اشتريتم كتاباً من هنا.. هل ستفلسون؟.. لا.. لا.. نحن لا نقرأ.. وعندما لا نقرأ.. فنهايتنا وخيمة.. الآن فقط فهمت لماذا لا نتقدم..؟ الأسماك التي نصطادها.. نلقي بها ثانية إلى البحر.. لأننا لا نعرف كيف نستعملها.. هكذا يقولون..! وهناك من يقول: لانتقدم لأنه لا يوجد خيارات للدخول إلى الجامعة.. ليدخل من يريد الكلية التي يريدها.

وبعضهم يفكر أن سبب تأخرنا ناجم عن إلقاء قمامتنا في الشوارع.. والبصاق على الأرض. أما بالنسبة لي.. فإن عدم تقدمنا ليس من إلقاء الأسماك بالبحر.. ولا الخيارات الجامعية.. ولا بصاقنا على أرض الشوارع.. بل فقط لأننا لا نقرأ.. ألا يشتري أحد كتاباً من هنا ولك أخي..؟

لم أستطع تحمل صراخ الباعة.. أشفقت عليهم.. اقتربت من أحدهم.. مددت له ليرتين وقلت:

ـ أعطني كتاباً من كتب حسن يازمان هذا.

قال البائع:

ـ كتاب واحد..؟

لو أملك مالاً لاشتريتها كلها.. ولكن ما من حظ.. يجب على الكاتب أن يشتري كتبه كلها كي لا يسخر منه الناس.

وضعت الكتاب الذي اشتريته من البائع داخل المحفظة كي لا يراه أحد.. خشية أن يراني أحد معارفي أشتري كتابي فيعمد إلى قرع الطبول قائلاً: «انظروا هذا الأحمق يشتري كتابه».

الصياح والصراخ يملآن المكان والميناء وكل شيء.

ـ صدر كتاب حسن يازمان..!

كنت أدور من حول الباعة أراقب: هل يتقدم أحد ويشتري كتابي..؟.. لا.. لا يشترون.. هل يقوى الإنسان على تحمل كل هذه الصفعات النفسية؟ هذه المرة طلبت كتاباً آخر من بائع آخر.. وإذا به يسألني:

ـ كتاب واحد؟

انظر إلى هذا.. وجد من يشتري ولا يشكر ربه.. هل في هذا المكان

أحد غيري يشتري كتاباً.. طبعاً لن أشتريها كلها دفعة واحدة.. هذا غير معقول.

عندما اشتريت الكتاب.. وإذا بالبائع يركبه العشق التجاري.. فصارت صرخاته تصم الآذان..

في هذه الأثناء فُتح باب الميناء.. ركبنا السفينة.. دخلها الباعة معنا وعادوا إلى الصراخ:

ـ صدر الكتاب الجديد لحسن يازْمان..

نظرت من حولي.. لا يوجد أحد من معارفي.. اشتريت كتاباً آخر بروية.. لعلَّ الناس يشترون الكتاب عندما يرونني أشتري.. ظل الباعة يصيحون.. لقد أغواهم حب التجارة والربح.. ولكن أين الشاري؟ أنا أسلي نفسي فقط.

آه لو تتحرك السفينة.. ويرمي الباعة أنفسهم إلى الميناء وأتخلص من هذه الحالة التي أنا فيها..

أفضل شيء يا سيدي.. أن يكون الكاتب غنياً.. فيوزع كتبه مجاناً.. زد على ذلك أن يعطي من يشتري أحد كتبه مبلغاً من المال أو هدية قيمة.. وإذا لم يبيعوا كتاباً مع كل هذه الصرخات والنداءات.. فمتى وأين ستباع هذه الكتب..؟ لن تباع أبداً.

السفينة لا تتحرك.. الباعة يدخلون إلى الصالون.. واحداً تلو آخر.. وكلٌّ يحمل عدداً من كتبي.. سأشتري كتاباً آخر.. ولكن.. أفضل شيء أن أغير مكاني.. وأشتري الكتاب في مكان لا يراني فيه أحد كي لا يظن بي سوءاً.

صعدت إلى سطح السفينة.. هناك أيضاً يصرخون:

ـ صدر الكتاب الجديد لـ (حسن يازْمان).

فرحت كثيراً لأن اسمي يلعلع ويدوي في كل مكان.. اشتريت كتاباً هناك أيضاً.. ثم لماذا أنا مغتم إلى هذا الحد؟ هل يصرخ الباعة بهذا الشكل.. إذا لم تكن كتبي قد بيعت أو تباع..؟ بالتأكيد يبيعون.. وأنا الذي لا أراهم عند بيعهم.. لو أرى أحداً يشتري كتاباً لأسرعت إليه وقلت:

ـ أنا كاتب هذا الكتاب الذي اشتريته.. ما رأيك لو أوقع على الكتاب؟

ولكن مع الأسف الشديد لم أر أحداً يشتري كتاباً.

لم يبق في جيبي سوى ثمن كتاب واحد.. مشيت خلف أحد الباعة أراقبه عله سيبيع كتاباً أم لا.. وكي لا يراني أحد.. كنت أفضل الزوايا كملجأ أو مخبأ للمراقبة.

دوت صفارة الباخرة.. إنها على وشك الإقلاع.. قلت في نفسي: لأشتري كتاباً آخر حتى أفرح الباعة.. و.. إذا باثنين منهم يتقابلان فيما كنت مختبئاً في زاوية المحرك.. قال أحدهما للآخر يسأله:

ـ هل بعت شيئاً؟

قال الآخر:

ـ اسكت يا أخي.. في حياتي كلها لم أر كاتباً بخيلاً بهذا الشكل.. صرخت أمامه بأعلى صوتي فلم يشتر مني سوى كتاب واحد.

ـ أنا لم يشتر مني أبداً.

ـ أنا أعتبر الكاتب كاتباً.. مثل السيد رضا.. عندما يصدر كتابه يشتري كتبه كلها تقريباً.

عندما بدأت الباخرة تبتعد عن الميناء قفزا إلى الأرض وعادا إلى الرصيف..

كيف لي أن أعرف أن الباعة يعرفون كل الكتاب..؟ بعد ذلك صرت عندما يصدر كتاب لي أمتنع عن الذهاب إلى تلك المنطقة إلا بعد مرور شهر على صدور كتابي.. لأنني لا أملك مالاً حتى أشتري من كتبي العشرات.. على الأقل لا يفتضح أمري أمام باعة الجرائد.

○ ○ ○

المسدس المسروق

جرت الحادثة في أنقرة. دخل شرطي وسط ازدحام أحد الأفران لشراء (خبز رمضان). وإن كنتم قد رأيتم هذه الكتل البشرية.. تعرفون ما معنى ذلك.. أكيد دخلتم.. وهذه حقيقة مؤكدة. فإن كنتم على قيد الحياة وتعيشون في هذه البلاد.. فأنتم حتماً قد خبرتم تلك التجمعات البشرية المتلاطمة.. الناحية الأولى.. أنا متأكد أنكم دخلتم وتدخلون.. ولكن لا أعلم إن كنتم قد خرجتم من وسط ذلك الازدحام أم لا.. فخروج إنسان من هناك أصعب بكثير من خروج روحه.

رجل الشرطة هذا كان وسط ذلك الازدحام الشديد لشراء خبز رمضان.. ربما كان صائماً.. ربما كان صائماً.. أو عائداً من العمل.. وربما كان نعساناً.. أو عائداً من المهمة منهكاً.. متعباً. لقد ذكرت الصحيفة أن الشرطي نجح في شراء الخبز.. فألف مبروك عليه.

هناك مواطنون كثر ينجحون في شراء خبز العيد.. غير عنصر الشرطة. ولكنهم يدخلون وسط الزحام بكامل شياكتهم وأناقتهم.. ويخرجون كأنهم بشر من العصر الحجري.. عراة كما ولدتهم أمهاتهم.. لم يبق على أجسادهم ما يسترهم.

اشترى الشرطي خبز رمضان.. وخرج من وسط الزحام. تقول الصحيفة إن الشرطي بعد أن أصبح بعيداً شعر أن جسده أصبح خفيفاً.. أي أنه أصبح خفيف الوزن.. كأن شيئاً قد نقص منه.. ليس ممكناً أن يشعر الغير بنقص الآخرين.. ولكن عندما يشعر الإنسان أنه خفيف وأن شيئاً قد نقص منه يبدأ بالبحث عن السبب. والشرطي عندما أحس أنه

خفيف.. وضع يده في مركز ثقله.. ومركز ثقل الشرطة هو مسدساتهم. وإذا به.. يجد غطاء المسدس في مكانه.. أما المسدس فغير موجود. من المؤكد أنه بينما كان الشرطي يحاول شراء خبز داخل الزحمة.. بادر أحد النشالين إلى فك غطاء المسدس.. وأخرج المسدس من مكانه وأعاد الغطاء إلى وضعه الأول. في البدء يشعر المرء ببعض الغرابة عندما يسمع أو يرى أن شرطياً قد فقد مسدسه من جراء النشل أو السرقة. ولكنه أمر عادي جداً.. فسرقة المسدس من الشرطي أسهل بكثير من سرقة منديل شخص عادي مثله. فالشرطي لا يولي انتباهاً لنفسه ولا لمسدسه.. لأنه على الدوام يراقب سرقة الآخرين لبعضهم.. ويحافظ على الناس وممتلكاتهم.. وأمام هذا الوضع فالحل الوحيد أن يكون الجميع شرطة.. ليراقبوا بعضهم ويحافظوا على حاجات بعضهم.

ثم إن فك الغطاء وسرقة المسدس من قبل نشال ماهر ليس بالأمر الصعب أبداً. هناك نشالون ماهرون جداً.. يدخلون وسط ازدحام من يريدون شراء خبز رمضان.. وهم في غفلة من أمرهم.. من جراء الصوم والتعب.. حيث يستطيع النشال انتزاع بنطال الإنسان وحذاءه وقميصه دون أن يشعر به أحد. ليحفظنا الله.. إذا دخل أحد هؤلاء النشالين وسط الازدحام وهو خال من الشرف والوجدان.. يعري جميع الموجودين هناك ويجعلهم كما ولدتهم أمهاتهم.. دون أن ينتبه أحد إليه. ولكن عندما يلاحظ إنسان ما حدث لمن هو أمامه أو قربه.. يفطن لنفسه أيضاً.. ويبدأ الجميع بالسخرية من بعضهم ويتساءلون: هل يوجد في بلدنا نشالون على هذا المستوى..؟ لنقل إنه أعجب بسترة أحد الموجودين وسط الزحام.. ولم يعجبه معطفه.. ينزع عنه معطفه ثم يأخذ السترة.. ويعيد المعطف إلى جسم صاحبه مرة ثانية. حتى أن هناك نشالين يستبدلون قمصانهم بقمصان غيرهم.. دون أن يشعروا بذلك.

في إحدى المرات أيضاً سرق أحد النشالين مسدس شرطي.. وملأ

غلاف المسدس بما يعادل ثقل المسدس من الحجارة. وهكذا.. لم يشعر الشرطي بنقص ما في جسده.. كما لم يفطن في تلك الليلة لسرقة مسدسه إلا عندما احتاجه. فالنشال الماهر.. كان قد عوض عن المسدس بقدر ثقله من الحجارة.. في تلك الليلة شك الشرطي المناوب بحركات وتصرفات أحد المواطنين وبدأ بمراقبته.. وفي الحقيقة كان تصرف المواطن مثار شبهة.. مشيته كانت غريبة.. يتوقف حيناً بعد حين... يسرع فجأة في مشيته.. أحياناً يمشي منحنياً.. يضحك حيناً ويقطب حاجبيه حيناً آخر.. ثم يسرع ثانية.. يجري بقوة. كل من شاهده اشتبه به.. ليس الشرطي فقط.

بدأ المواطن المشبوه يجري.. واتضح أنه يريد التخلص من مراقبة الشرطي.. معقول هذا الكلام..؟ فهل استطاع أحد التخلص من مراقبة البوليس؟

بدأ الشرطي بالجري خلف المشبوه.

وكما تعرفون أن مواطنينا يحبون المساعدة كثيراً.. فإذا ما شاهدوا أحداً يجري.. ترى الآخرين يجرون خلفه فيتركون أعمالهم وأشغالهم. وخاصة إن كان المطارِد شرطياً أو غيره.. المهم أن يكون أحد يطارد غيره.. نبدأ بمطاردة الرجل الفار أمامنا.. كان المطاردون من سبعة إلى سبعين شخصاً.. الصغير والكبير.. الرجل والمرأة.. العجوز والشاب.. الكل يريد مطاردة المهزوم أمامه.. الحرفي الذي يغلق أبواب محله.. والسائق الذي يترك مقود سيارته.. وقاطع التذاكر في الترامواي.. الجميع ساهموا بمطاردة المهزوم الهارب الذي أمامهم. قد لا تصدقون القصة إن لم تحصل معكم شخصياً. تظاهروا بمطاردة أي شخص لا على التعيين.. ستجدون أن كل الموجودين حولكم يركضون خلف الشخص الذي تطاردونه.. وإن تراجعت أنت شخصياً عن المطاردة.. وعدت إلى

مكانك.. فالآخرون لن يتراجعوا بأي شكل من الأشكال.

في إحدى المرات.. جرت معي حادثة مماثلة.. لم يبق سوى عشر دقائق لتحرك باخرة (قاضي كوي).. كنت موجوداً في (جاغال أوغلو).. واستحال أن أجد سيارة في تلك الأمسية.. قلت: لو أسرعت في الجري ربما ألحق بالباخرة. بدأت الجري.. سمعت أصوات خطوات من خلفي.. الأصوات بدأت تكثر وتزداد.. وبدأ الصياح:

ـ أمسكوه..

ـ إنه يهرب.

ـ أمسكوه.

ـ إن كنتم تحبون الله اقبضوا عليه.

لم آكل باذنجاناً مراً حتى يسبب لي المغص ولم أقترف جرماً حتى أهرب.. وما دخلي بهم..؟ ربما يجرون مثلي.. ليصلوا إلى الباخرة.. وبقيت أجري وأجري.

وإذا بالأصوات تتعالى والعساكر الذين يرفعون القازان الكبير.. حيث بدأت القيامة تقوم:

ـ أمسكوا بالقاتل.

ـ يا بوليييس.. إنه يهرب.

ـ لقد اعتدى على قاصر ويهرب.

ـ عدو الشرف والناموس.. أمسكوه..

ـ اقطعوا عليه الطريق.

ـ السارق يهرب.

ـ لقد سرق بيتي.

- خائن..

- قتل ثلاثة أرواح.

- ضعوا أرجلكم على رجليه ارموه أرضاً.

- أخذ مالي.

- إنه نشال ولك عمي..

عندما وصلت إلى سيركجي.. نظرت خلفي لأعرف ما يحصل.. ماذا أرى..؟ جيش من الناس يلاحقونني.. لو أمسكوا بي.. لجعلوني غباراً قبل إفهامهم أنني مواطن شريف.. أهرب.. أهرب.. إنها الروح يا أخي.. بعضهم يقطع عليَّ الطريق يريد إيقاعي.. وبعضهم يرمي بالعصا بين رجلي.. وأنا أجري وأقفز رعباً.

لو أن مجرد أي إنسان يبدأ بالجري من إحدى ضواحي استانبول.. ترى المدينة كلها تجري خلفك.. وعند وصولك إلى الطرف الثاني من استانبول.. تكون المدينة قد فرغت من أهلها.

المهم.. وصلت الجسر.. والباخرة على وشك الاقلاع.. مررت بالميناء.. الأبواب الحديدية للميناء كلها مغلقة.. بدأ المطاردون اجتياز الأبواب فوق أسوار الحديد.. ما شاء الله. لو لم تتحرك الباخرة بسرعة لما استطعت إنقاذ نفسي.

منذ زمن.. ولديَّ فضول كبير لمعرفة سبب هذه الحرارة في المطاردة عندنا.. سألت بعض معارفي المختصين في هذا الموضوع. بعضهم حلله تاريخياً.. وبعضهم فسره اجتماعياً.. وهنالك من بحث في هذه الظاهرة.. وفسرها على النحو التالي:

«يقولون إن آباءنا الأولين والذين خرجوا من آسيا الوسطى ووصلوا أبواب فيينا.. ظلوا يطاردون أعداءهم من على ظهور أحصنتهم.. يعني

إن وهج المطاردة شركة ورثناها عن آبائنا.. فسرت في دمائنا ولا تزال تمشي.. عندما نجد أحداً يجري أمامنا.. تشتعل النار التاريخية الموجودة في دمائنا.. ولا نملك السيطرة على أنفسنا فنبدأ بالجري والصراخ: «أمسكوه ولك.. اضربوه ولك».. ونجري خلف من يجري أمامنا.. كائناً من يكون».

أما من يفسرونها اجتماعياً فيقولون: «نحن أناس تأصلت فينا الأمراض الاجتماعية.. لا يخلو أحدنا من حزن أو هم أو ألم.. بعضنا.. سُرق منزله.. والسارق لم يُقبض عليه. وبعضنا سُرق ماله.. ولم يقبض على السارق أيضاً. وبعضنا.. وقع ضحية الاحتيال والنصب.. ولم يستطع استرداد حقه. كل منا عنده علة أو مشكلة ما.. فإذا ما ركض أحد أمامنا كائناً من يكون.. نتذكر مباشرة الذين (أجلسونا على الخازوق) فنبدأ بمطاردته دون وعي.. أي لاشعورياً.. المهم أن يتم القبض على من يركض حتى ولو كان يتمرن على رياضة الجري».

وحسب التفسيرات الفردية أو النفسية.. يقول البعض: «ولك آمان.. المهم ألا يطاردني أحد.. ولا يقبض علي».. يقول هذا ويغمره الفرح والسرور.. فالتوقف عن مطاردة الآخرين معناه أننا نظيفون.. فلا يقوم أحد بمطاردتنا.. ونتخلص من مشاكل كثيرة..

على كل الأحوال.. نحن جميعاً نشعر بالفرح عندما نطارد بعضنا.. ولنعد الآن إلى الشرطي الذي بدأ بمطاردة المواطن المشبوه بأمره.

ظل الشرطي الذي يقوم بالمطاردة.. والذي سرق منه مسدسه وملأ مكانه بحصاً من نفس وزنه.. يطارد المواطن وصرخ من خلفه ثلاث مرات: «قف.. قف.. قف..» لم يمتثل الهارب للأمر على ما يبدو ولم يأبه بمن يعدو خلفه.. فكان يركض بشكل غريب.. حتى أن عزرائيل نفسه لا يستطيع اللحاق به.

وأصبح الهارب في المقدمة.. والشرطي من خلفه.. ومجموعة كبيرة من المواطنين يريدون نوال الثواب.. يطاردونه أيضاً.. منهم من أيقظته الضجة والصراخ.. بعضهم بلباس النوم وبعضهم بدونه.. حتى النساء كن يطاردن الرجل المسكين.. أما أنا فكنت كوحش كاسر كلب.. أجري خلفه دون تباطؤ أو كلل.. فلو أننا قبضنا عليه لكان الآن في خبر كان.. صرخ الشرطي مرة أخرى: «قف.. قف.. قف..» لم يسمعه الرجل.. ظل يعدو بكل قوته.. مدَّ الشرطي يده إلى ظهره ليأخذ المسدس.. وصرخ:

ـ أي واه.. لقد سرقوني.. لقد نشلوا مسدسي.

كما أنه استمر في مطاردة الرجل وهو يقول ويصرخ:

ـ وقف وإلا أطلق النار عليك.. عندما لم يسمعه الرجل.. تناول الحصا الموجودة في بيت مسدسه وصار يرشق الرجل بها.. ومن جهة ثانية كان يقول:

ـ السارق منصف جداً.. وكله ذوق ووجدان.. لم يترك بيت المسدس فارغاً فملأه بالحجارة.. لو أنه ملأه رملاً ماذا كنت سأعمل..؟

قال ذلك وصار يدعو للسارق.

عندما وصل الرجل إلى ساحة الحربية.. دخل التواليت العمومي ونزل أدراجه أربعة أربعة.. وقذف بنفسه داخل أحد المراحيض.. ولست أعلم إن كان قد فعل ذلك ليخلص نفسه من مطارديه.. أم أنه فعلاً محشور..؟ تركنا الرجل في المرحاض وهو يسحب «أووهاً» على كيفه.

أقول ذلك كله لأثبت أنه عندنا سارقون ماهرون جداً.. حقيقة عندنا سارقون يسرقون الكحل من العين. وعلى ذلك الشرطي الذي سُرق مسدسه أن يفرح كثيراً.. لأنه سيذهب ويقدم شكوى بأن مسدسه قد

سرق منه. ما بالنا لو وقعنا بيد سارق أشد مكراً ومهارة فيسرق الشرطي ويعف عن المسدس ماذا كان سيحصل؟ هل يذهب المسدس بنفسه إلى المخفر ليقول: لقد سرقوا مني الشرطي..؟!!!

ο ο ο

مع الأسف لا يصير

تمسكوا برأيهم قائلين:

ـ سنزوجك حتماً أو سنزوجك رغماً عنك.

أما أنا فأتدلل.. وأتظاهر بعدم الرغبة في الزواج.. أردت الزواج وبأسرع ما يمكن.. كما أنني فقدت الأمل لأن كل النساء رفضن الزواج بي..

ـ فتاة ذات شرف وناموس.

إذا مدحوا فتاة لناموسها يعني أنها فتاة نظيفة..

أما أنا فإن لم تكن نظيفة سأقبل بها.. شريطة أن تكون إنسانة أستطيع النظر في وجهها (أي جميلة إلى حد ما).

ـ هذه مناسبة لك تماماً.

ـ إنها مثقفة مثلك تماماً وتناسبك.

سررت بهذه المعرفة وهذه الثقافة. وما عجبت له إن كنتم تعلمون أو ربما قرأتم إعلانات الزواج في الجرائد والمجلات أن الجميع يبحث عن المثقفة.. من عامل الدهان.. إلى المتقاعد..

ـ أمها ألمانية.. أبوها تركي..

ـ ها.. هذا جميل جداً.. ويسرني كثيراً.

وكما هو معروف.. الهجين من الحيوان و المسمار من الإنسان جيد. على الفور تذكرت مدام (فون سادرشتاين) في قصة عمر سيف الدين.. امرأة ألمانية قوية البنية.. كل يوم تعود من السوق وقد لبست ثياب الرياضة..

ـ تعرف الألمانية والفرنسية والإيطالية.

قلت في نفسي.. انتظرنا أربعين عاماً ولكن ضربنا العصفور من عينه. وكما يقولون: «الدرويش الصابر.. يجد مراده».

وسمسارتي فتاة تدعى الآنسة (الفيترا) في الستين من عمرها.. جسدها يابس كقطعة الحطب:

ـ إنها جميلة جداً.. تري جولي.. (Trejoli) طويلة ومثقفة (Elegans Trekultive).. ومن عائلة أرستقراطية (Familya).

قلت لها:

ـ ولكن يا آنسة (الفترا) هل شرحت لها وضعي..؟ أنا في الأربعين.

قالت:

ـ شرحت لها.. وأجابت أن الرجل لا يكون رجلاً إلا بعد الأربعين.

ـ هل أخبرتها عن قصر رقبتي؟

ـ قالت: يكون ذا عقل راجح.

ـ هل قلت لها إنني كاتب مغمور لا يقبض سوى خمسين ليرة في الأسبوع كفتيات الليل.. هذا إذا أطعن سيدتهن (المعلمة)؟

ـ قلت كل شيء.. عندها ثلاث بنايات.. ولم تعترض مطلقاً.

إيه.. الحمد لله.. لقد غفر ذنبي.. من يسقط من تلقاء نفسه لا يبكي.. إن كانت تبحث عن مصيبتها فلن تجد مصيبة مثلي أبداً.

والحقيقة أنني ما صدقت ذلك أبداً.. لي صديق.. يريد أن يزوجني رغماً عني:

ـ آمان بالله عليك تزوج يا عزيزي.. مستقبلنا نحن الاثنان مرتبط بزواجك هذا.. لنتخلص من هذه الحقارة المسماة (العزوبية).

قلت:

ـ ولك أخي.. هل شغلت عقلك..؟ فتاة مثلها.. لشخص مثلي ولهذا الزمان!!.. فكر بعض الشيء.

ـ اترك هذه الحماقة.. ودع طائر الحظ يحط على رأسك هذه المرة.

المهم.. رضخت للأمر.. والفتاة التي سأتزوجها ستأتي مع الآنسة (الفترا) إلى مكتبنا.. وصديقي سيكون معي.. أنا سأراها.. وهي ستراني.. وسنتعارف.

جاءت في الموعد المحدد.. أما حياة العازب فلا يعرفها غير مجربها.. غسلت قميصي الأبيض في المساء ونشرته على الشرفة.. في تلك الليلة ظلت الأمطار تهطل حتى الصباح.. والقميص الذي على الحبل.. صارت المياه تقطر منه. عندي قميص آخر ولكنه قذر.. عصرت القميص المبلل.. وفتحت ياقته على طاولة.. وبمكواة حامية جداً بدأت أكويه جازززز... القمصان الجاهزة هكذا دائماً. الياقة من الداخل كبيرة وواسعة.. ومهما حاولت تسويتها.. لا تنجح. نظفت ثيابي الأخرى بالبنزين.. مناديلي كلها متسخة وكذلك جواربي. عندما كنت أحلق ذقني.. شممت رائحة حريق حاد.. آه لقد نسيت المكواة الحارة.. فوق بنطالي.. احترق عند الركبة. لعنت حياة العزوبية وقلت: وليحصل ما يحصل.. سأتزوج من هذه الفتاة.. لبست القميص مبللاً بعد أن تحول وجهي إلى شبكة من الدماء التي لا تعرف التوقف عن السيلان لشدة ما أسرعت في حلاقة ذقني.

موعد اللقاء أوشك أن يمر.. ركبت سيارة أجرة وقصدت مكتبي.. قال لي صديقي الذي استقبلني على الباب:

ـ أين أنت يا أخي..؟ منذ ساعة وهن ينتظرنك.

ـ كيف هي..؟ هل يستطيع الإنسان أن يأكلها أو أن يبتلعها أو يهضمها؟

لاحظت أن وجه صديقي ليس الوجه الذي أعرفه..

ـ تعال.. وانظر بنفسك.

يا هول ما رأيت..! مخلوق وحشي جلست قرب الآنسة الفترا.. تنظر إلي بعيون خائفة.. نظرت إلى صديقي.. فأشاح بوجهه نحو الجدار. فهمت أنه لن يساعدني.

ـ أهلاً بكم..

ـعفواً.. أرجو أن لا أكون قد جعلتكنّ تنتظرنني كثيراً.. وكما تعرفان.. الطرق والمرور...

جلسنا وجهاً لوجه.. هل أرفع هذه الطاولة وأهوي بها على رأس الآنسة الفترا.. أنا شيخ الحمقى.. ولكن ليس بهذا القدر.. المرأة التي جاءتني بها لأتزوجها.. لا تصلح إلا للفرجة، أضعها داخل خيمة وأدعو الناس لرؤيتها. وأقول:

ـ تفضلوا.. هذا هو الحيوان المسكين العجيب الذي تتوقون لرؤيته.

تضعها أولاً على الرصيف ثم تأخذها إلى ساحات العيد.. ثم تلف بها الأناضول بلدة بلدة.. وتصلح أن تأخذها حتى إلى أوروبة وأمريكا.. وأن تجعل منها إعلاناً.. يتعرفون من خلالها على البلد.. ليفهموا ويروا ما نوع المخلوقات الموجودة عندنا!!

تصافحنا:

ـ كيف حالك؟

ـ مرسي.. وأنت كيف حالك؟

وإذا بالآنسة الفترا تسألني فجأة وأمامها:

ـ كيف وجدتها؟

قلت لها:

ـ هل سمعت يا آنسة الفترا أنهم سيفتحون حديقة للحيوان في استانبول؟

ـ لم أسمع.. ولكنه شيء جميل..

الفتاة التي أحضرتها.. هي.. استنساخ حيواني إلى كائن بشري.. أنفها غطى فمها.. ووصل حتى فكها الأسفل.. فمها يشبه إبرة البوصلة المائلة نحو اليسار.. لايفهم من كلامها شيء على الإطلاق. تتحدث وتتحدث.. ولكنني لم أفهم شيئاً من حديثها.. علماً بأن اللباقة تقضي أن أجيب على كلامها.

لو كان هنالك ما يجعلني أرى إشارة أو علامة في عينيها.. لأجبتها بكلمة: لا.. أو نعم. حتى أن الطبقة اللحمية لجفنها الأعلى قد غطت عينيها.. كانت تنظر إلي كالبقال الذي يفتح باب دكانه نصف فتحة.. وهو في حالة خوف دائم.. هي الأخرى كانت تنظر إليَّ بمثل هذا الخوف.. وبمعنى أفصح يا سيدي.. إن القدرة الإلهية العظيمة قد زرعت أبشع وأسوأ ما في الكون في هذه المخلوقة. قال الرب: لأخلقن إنساناً قبيحاً ليراه عبادي علهم يتعظون.. ولا أحد يدري ماذا يريد الله في النهاية..! المهم ظهرت هذه المخلوقة.. لقد قالوا إنها تعرف أربع لغات.. كذب وخداع. عملت بعض الوقت بائعة متجولة فتعلمت بعض الكلمات الأجنبية ثم طردوها من العملبعد أن هرب الزبائن لقبحها.. قالوا إن أمها ألمانية.. كذب.. وإنها تملك عدة عمارات.. كذب أيضاً.. عندها بيت بثلاث غرف.. وعندها ثمانية إخوة يشاركونها ملكيته.

سألتني الآنسة الفترا للمرة الثانية:

ـ كيف وجدتها..؟ هل أعجبتك؟ لنتحدث هنا.

لو قلت إنها أعجبتني خجلاً منها.. أو لباقة.. فستباشر على الفور

بمعاملة النكاح.. فبدأتُ بالثأثأة والكلام غير المفهوم:

ـ كما هو معلوم.. في مثل هذه المسائل.. أليس كذلك يا سيدتي؟ قبل الرجل.. أليس كذلك يا سيدتي؟.. يجب على الست هانم بهذا الخصوص.. أن تأخذ.. أن تقطع أي التباس.. أن تأخذ فكرة ما..

نظرت إلى وجه المسكينة.. كانت عيونها مسمرة على أطراف شفتي.. ساد صمت طويل.

قالت محطمة الصمت:

ـ لو أن الطقس يبقى جميلاً..

تعلقت بالطقس والهواء كتعلقي بالكعكة التي تنقذ الإنسان من الجوع..

ـ نعم يا سيدتي.. ما شاء الله على هذا الطقس.. هذا العام..

انظر.. إذا ما فتح الحديث عن الهواء والطقس.. كل شيء يتغير.. أستطيع أن أتحدث أسبوعاً كاملاً دون توقف.

والحقيقة.. أن حرقة استقرت في أعماقي.. فكروا.. فتاة عانس.. جاءت إلى هنا.. تريد الزواج.. صدقوا أو لا تصدقوا.. دمعت عيناي شفقة عليها. ألم تسمعوا بتلك المقولة: «الدمع الذي في عيني.. والليونة التي في وجهي» جعلتني أقول في نفسي:

ـ تزوج هذه الفتاة يا رجل.. وليست المرة الأولى التي تصبح فيها أحمقاً وغبياً.. خذها.. لتثري معرض الغباء عندك.. وفي كل الأحوال.. وقد ذاع صيتك مضحياً.. هيا أظهر نفسك.. ضحِّ مرة أخرى.. وخلص هذه المسكينة.

ـ الطقس في هذا العام.. بالنسبة للعام الماضي..

- نعم يا سيدي..

أنظر إلى وجهها.. ولماذا أخفي عنكم يعني..؟ كنت أقول في نفسي: «عندما سأتزوجها.. علي أن أقبلها على الأقل..» بحثت في وجهها عن نقطة واحدة.. وبكل نية صادقة.. أستطيع أن أقبلها.. ولكن مع الأسف الشديد لم أجد. وبكل نية صادقة بدأت أنظر إلى نواحي أخرى من جسمها.. إلى يديها وشعرها.. ولكن عبثاً.

قلت في نفسي: «أنت رجل شاعر وخيالك غني جداً.. انظر إلى وجهها.. وتخيل صورة أخرى».

في ذلك اليوم.. تحدثنا ساعتين عن الهواء والطقس.. وعندما همتا بالذهاب لاحظت أن رجلها اليسرى أقصر من اليمنى مقدار خمسة أو ستة أصابع. حزنت كثيراً لعرجها.

بعد ذهابهن.. سألني صديقي:

- كيف وجدتها؟

قلت:

- سأتزوج هذه الفتاة.

- أنت جننت بالتأكيد!

- عندي قناعة بأنني لن أجد فتاة أو امرأة أفضل منها.. ولهذا سأتزوجها.

في المساء جاءت الآنسة الفترا.. قلت لها:

- سأتزوج.

سألتني:

- ممن؟

ـ ومن ستكون يعني..؟ التي أحضرتها إلى هنا.

نظرت الآنسة الفترا مدة في وجهي نظرة حزن وشفقة وقالت:

ـ مع الأسف ما صار نصيب.

ـ لماذا؟

ـ لم تعجبها!

○ ○ ○

في إثر البندورة

عندما اختفت البندورة هذا العام من الأسواق.. أعلنت الولاية للمواطنين هذا الخبر عن طريق الصحف: «كل من يعرف أحداً يحتكر ويخفي مادة البندورة عن الأسواق.. عليه أن يعلم مديرية الأمن على الفور. والمواطن الذي يعرف المحتكرين ولا يخبر عنهم يعتبر مقصراً في واجبه ومفرطاً بحقوق المواطنين».

Zirr... Zirr... Zirr... زيرر.. زير..

كان الهاتف يرن.. قال معاون شارلوك هولمز.. الدكتور واتسون:

ـ إن جرس الهاتف يرن يا سيدي.. أجب على الهاتف.

قال مستر هولمز:

ـ إذا كانوا يبحثون عني.. فإن هاتف الآخرين يرن.. وليس هاتفي.. فإن رنَّ هاتف ما في مكان ما. افهم أن هذا الهاتف يطلب مكاناً آخر.

قال الدكتور واتسون:

ـ نعم.. الأجراس ترن لصالح فواتير دائرة الاتصالات.. زيررر.. زيررر.. زيررر..

وضع شارلك هولمز غليونه في فمه وعض عليه لشدة غضبه وقال:

ـ دكتور واتسون.. رد على الهاتف.. ربما عندهم خبر عاجل.

وضع الدكتور واتسون السماعة على أذنه:

ـ بيت من تريد؟

قال الصوت القادم من الهاتف سائلاً:

ـ هنا بيت كاترينا الجميلة.. أليس كذلك؟

ـ لا هذا المنزل ليس بيت كاترينا الجميلة.. ولكن صاحبة هذا البيت جميلة أيضاً وتسمى (ماريكا).. هل أنت على عجلة من أمرك؟

ـ آه.. أنا في عجلة شديدة.. يجب أن ألتقي بكاترينا الجميلة حتماً.. أبحث عنها منذ شهر بالهاتف.

ـ بما أنك مضطر.. أعطني عنوانك.. نبحث عنها ونخبرها بذلك.

في هذه الأثناء قرع الباب.. وقدم ساعي البريد الذي دخل إلى الغرفة برقية إلى مستر هولمز.. تقول: «السيد هولمز.. البوليس التحري.. حسب المعلومات التي زودتنا بها مديرية أمن أضنة.. أن إحدى المهربات المحترفات.. دخلت حدودنا وفي (حفاضها) ٢٥٠ غ من البندورة.. هذه الإخبارية وصلتنا من مواطن شريف.. لأخذ العلم.. والقيام بما يلزم.

العريف الشرطي حسن بن علي شمشاك مواليد كوتاهية عام ١٩٣٥ شرطي الشعبة الثانية.. رئيس شعبة المهربات».

أصاب الدكتور حيرة واضطراب.. فسأل معلمه:

ـ والآن ما العمل يا أستاذ؟

الأستاذ:

ـ ما سنعمله بسيط جداً.. الآن سنجيب على هذا الكتاب.

ـ وبعد ذلك..؟

ـ وبعد ذلك.. هم سيكتبون لنا.

ـ وبعده..؟

ـ سنجيبهم مرة ثانية.

ـ ثم؟

- ثم هم سيكتبون لنا.. ثم نحن لهم.. ومرة أخرى هم لنا.. وسيدوم الأمر هكذا.. إلى أن يمل الطرفان ويملوا من الإجابة وإرسالها.

- نعم أستاذ.

- بعد فترة.. سيتذكر أحد الطرفين.. وسيكتب تأكيداً.. وتكثر الأوراق تباعاً.. فيتم شراء آلة كاتبة.. ويفرز كاتب.. ثم موظف ملفات وموظف أرشيف.. وبواب وخادم.. ثم محاسب.. ثم نتوزع إلى شعب وأقسام وفروع.

- نعم.

- وستكون لنا ميزانية خاصة مستقلة.. وهكذا مع مرور الزمن بناء (المديرية العامة للبحوث البندوراتية).

- طيب.. ولكن يا أستاذ ماذا سيحصل للبندورة المخبأة في حفاض المرأة .. والبالغة ٢٥٠ غراماً؟

- حتى يحين ذلك الوقت تكبر حبات البندورة وتصبح طناً.

- مستر هولمز.. عندما كنت في إنكلترا لم تكن هكذا..!

- نعم.. ولكن.. إنكلترا أيضاً لم تكن هكذا.. لا تنس أن المخبر الأصيل يتلاءم مع وضعه الجديد فوراً.. وليس هناك من عجالة للبندورة.. المهم قبل كل شيء.. أن نكتب جواباً. اكتب:

«إلى مديرية أمن طرسوس.. الشعبة الثانية.. مكتب المهربات.. القسم الثاني.. رئيس الشعبة الرابعة:

.... اليوم و.... جواباً على كتابكم..

تم استلام الشيفرة التي أرسلتموها بشأن وجود ٢٥٠غ من البندورة في حفاض إحدى المهربات والتي اجتازت الحدود.. ولكي نقوم بالبحث والتدقيق الكاملين.. ولأنكم لم توضحوا إذا كانت البندورة.. محمرة على

أكمل وجه أو خضراء.. نرجو تزويدنا بالسرعة الكلية بمواصفات البندورة المذكورة.

التحري العالمي شارلوك هولمز»

كتب الدكتور واتسون هذه الرسالة على الآلة الكاتبة.. وإذا بالهاتف يرن.. امرأة مسنة كانت تتحدث على الهاتف:

ـ ألو.. هنا مخفر البوليس يا ابني..؟ أسرعوا.. تعالوا.. هنالك رجل خبأ كمية من البندورة.. يريد أن يحتكرها.. سألها واتسون:

ـ ما اسمك؟

ـ شاهناز.

ـ عمرك؟

ـ ولك حبيبي شو دخلك بعمري.؟

ـ لأنه يا سيدتي.. إذا كانت المرأة في الثلاثين من عمرها.. ننجدها بشكل.. وإذا كانت في الأربعين ننجدها بشكل آخر.

قام الدكتور بإجراء تحقيق غير مباشر مع المرأة بأسلوبه البوليسي.. إن كان لها سوابق أم لا.. درجة تعليمها.. وبعد أن سجل كل ذلك قال لها:

ـ نحن قادمون إليك.. وأقفل الهاتف.

خرج شارلك هولمز ومعاونه إلى الشارع للقبض على المحتكر.. فسأل معاونه:

ـ إلى أين سنذهب؟

قال الدكتور واتسون:

ـ أف.. سألتها عن كل شيء.. ولكن لم أسألها عن العنوان.

قال مستر هولمز:

ـ أهنئك لأنك اعتدت جوَّ هذا المكان بوقت قصير.. اتصل بالهاتف واسألها.

دخل الاثنان معاً إلى الدائرة.. أدار د.واتسون أرقام الهاتف وقال للمرأة التي على الطرف الثاني:

ـ المعذرة.. قبل قليل.. كنت قد نسيت أن أسألك عن رقم هاتفك.. إن سمحت زودينا به.

تذكرت المرأة فجأة وهي تعطيه رقم هاتفها وقالت:

ـ حسن.. إن كنت لا تعرف رقم هاتفي.. فكيف اتصلت بي؟

ـ تركت هذا الأمر للصدفة.. على كل الأحوال.. الخطوط متداخلة بعضها.. والأحاديث تسمع من جميع الأطراف.. اتصلت.. على أمل أن أجدك.

ـ آي.. أنت سكرة.. من أنت؟

ـ أنا معاون التحري البوليس شارلوك هولمز.. هنالك امرأة أدخلت مقداراً من البندورة عبر الحدود.. ونحن نبحث عنها.

ـ أنا المرأة التي تبحث عنها.

ـ نحن لا نبحث عن المرأة.. بل عن البندورة.. فإن وجدتيها أخبرينا بحق إنسانيتك.

أغلق الدكتور واتسون الهاتف وقال لهولمز:

ـ تعبنا اليوم كثيراً يا أستاذ.

في هذه الأثناء.. كان التحري.. ينظر إلى قميصه الداخلي نظرة بحث وتنقيب.. فقال الدكتور واتسون..

ـ هل اكتشفت شيئاً يا أستاذ؟

شارلوك هولمز:

ـ نعم.. دخل برغوث من ساقي.. ومنذ وقت طويل وأنا أبحث عنه.

نظر الدكتور واتسون إلى ساعته وقال:

ـ الساعة قاربت الخامسة يا أستاذ.. انتهى وقت العمل.. أستأذنك. غداً نقتفي أثر البندورة.

قال مستر هولمز:

ـ أنا مناوب اليوم في مخفر هور هور.. هيا مع السلامة.

قال الدكتور واتسون عند مغادرته المكان:

ـ آمان.. دخيل الله.. إذا لقيت بعض حبات البندورة احسب حسابي أيضاً.. سأعمل سلطة في المنزل.

○ ○ ○

كلهم كانوا بناة مصلحين

نحن طلبة ندرس في معهد صناعي داخلي.. أي ننام في المعهد. أصغرنا عمراً في الثالثة والعشرين من عمره.

منذ شهرين فقط جاءنا مدير جديد.. وأول عمل قام به.. عند استلامه المعهد.. السؤال عن المدير القديم وما قام به.. وما فعله في المعهد وما لم يفعله..

كان المدير القديم قد عمّق قبو البناء مقدار متر ونصف.. وجعله مطعماً للمعهد بعد أن حسنه ودهنه.. وحول الصالون الموجود في الطابق العلوي والذي كان مطعماً.. إلى صف دراسي.. حيث اتسعت المدرسة وكبرت. والمدير القديم.. دهن جدران الصفوف بالأصفر.. وجدران المهاجع بالوردي.

غير ذلك..؟ كانت المقاعد في الماضي تتسع لطالبين يجلسان جنباً إلى جنب.. فحولها وجعلها لطالب واحد.. لأن الطالبين الجالسين جنباً إلى جنب.. يتحدثان.. ويبتعدان عن جو الدرس.

بعد أن عرف المدير الجديد ما فعله المدير القديم.. انتقل إلى العمل. كان الجميع يقولون عن المدير القديم.. رجل بنّاء.. وعامل نشيط.. ليروا.. كيف يكون الرجل البنّاء..

ـ ما هذه المغارة المظلمة؟

ـ مطعم.

ـ وهل يؤكل الطعام في القبو..؟ هل سمعتم بهذا من قبل..؟

(الشخصيات يعني نحن).. هنا تنقص شهوتهم للطعام.. هيا اهدموا هذا المكان واردموه كما كان.

انتقل المطعم إلى مكانه القديم.. وتم تحويل المقاعد إلى شخصين.

- طالبان اثنان يدرسان أفضل.

ودهنت المهاجع باللون الأبيض.. وتحولت جدران الصفوف إلى اللون الأخضر.

عمد المدير الجديد بعد أن صحح كل ما ارتكبه المدير القديم من أخطاء.. طبعاً من وجهة نظره.. إلى تقديم شيء لم يفعله أحد من المدراء قبله أو لم يتذكروه.. وهو إقامة حوض للسباحة في المدرسة.

الجميع معجبون بالمدير الجديد.

- يا له من رجل بنَّاء وفاعل..!

المدير البنَّاء يقول:

- هل من المعقول أن يكون معهداً حديثاً ولا يكون فيه حوض للسباحة؟

بُدئ بحفر حفرة كبيرة وسط الحديقة.. ونقلت المواد كالإسمنت والرمل والحديد والحصى إلى هناك. في هذه الأثناء تماماً صدر قرار بنقل المدير البناء الجديد إلى مكان آخر. ومع ذهابه بقي حوض السباحة الحديث على حاله دون إتمام.

المدير الجديد.. لم يكن أقل فاعلية وإصلاحاً من الأقدمين.. قبل كل شيء.. غير الألوان.. صار القبو القديم ثانية مطعماً.. وحوَّل غرف النوم إلى صالة للسينما.. وألغى نظام الشخصين في كل مقعد.

- هل هذه مدرسة ابتدائية؟

وضعت الطاولات بدلاً من المقاعد.. كل هذه التغييرات لا تهمنا

أبداً.. كنا نفكر بحوض السباحة.. ماذا سيحصل لحوض السباحة؟ الحوض الذي سيكسب المعهد (الحداثة).. والحضارة.. ماذا سيحل به؟

قال المدير سائلاً:

ـ ما هذه الحفرة؟ وما هذه الرمال والحصى؟

ـ إنها لحوض السباحة يا أفندم.

ـ ماذا؟ تقولون حوضاً للسباحة؟ وماذا يعني؟ ولماذا؟ وما فائدته؟ هيا اردموا هذه الحفرة.

فانهالت الرمال والحصى والإسمنت على الحفرة.

المدير الجديد لم يبق أقل فاعلية وإصلاحاً من المدير القديم..فسبقه بأشواط وأشواط..

ـ السادة الكبار (يعني نحن).. لا يستطيعون التلاؤم مع المجتمع وهم لا يعرفون الرقص.. فإن دُعوا إلى إحدى الحفلات فإنهم يخجلون من أنفسهم. كان من المفروض أن تقام مكان حوض السباحة.. ساحة للرقص.

هكذا أمر المدير البنَّاء..

بدأ العمل.. تمت تسوية الأرض التي كان سيقام عليها حوض السباحة.. وتم إنجاز نصف الأعمال تقريباً.. فصدر قرار بترفيع المدير ونقله إلى مكان آخر.

المدير الجديد كان أكثر المدراء الذين رأيناهم وعايشناهم فاعلية ونشاطاً.

بدأ العمل من الطاولات الموضوعة في الصفوف.

ـ هل هذه مدرسة أم بار لشرب الخمر..؟ هيا ارفعوا الطاولات.

رفعت الطاولات ووضعت المقاعد ذات الشخصين مكانها. وتغيرت

ألوان الجدران.. اللون الأصفر صار وردياً والوردي صار فيروزياً.. والأبيض سماوياً.. والسماوي أبيضاً.. وتم تغيير أماكن الصفوف وغرف النوم والمطعم. ولما جاء دور ساحة الرقص قال المدير سائلاً:

ـ ما هذا؟

ـ هذه ساحة للرقص.. كان المدير القديم يريد أن يبني فيها قاعة للرقص.. إلا أنها لم تكتمل.

ـ ماذا؟.. يعني سنحول هذا المكان إلى كازينو؟ أم بار؟.. الآن فقط فهمنا لماذا لا يتعلم هؤلاء الباشاوات بشكل حسن.. هيا فكوا كل شيء بالسرعة القصوى.

تم فك ساحة الرقص.. قال المدير:

ـ قبل كل شيء أيها السادة.. قيل: «العقل السليم في الجسم السليم».. يجب أن نقيم مكانها قاعة للرياضة والجمباز.

بدأت الأعمال بتحويل مكان قاعة الرقص إلى ساحة للرياضة.. في أحد الأطراف.. ملعب للتنس.. والطرف الآخر ملعب للكرة الطائرة.. أمكنة للثابت والمتوازي.. حلقات التعليق. تم تثبيت الحدائد في الأرض وصبت قواعد الإسمنت.. في هذه الأثناء تماماً.. نقل المدير المصلح إلى مكان آخر.

وجاء المدير الجديد.. أكثرهم فاعلية وإصلاحاً.. فقال في أول يوم جال به في المدرسة:

ـ ما هذه القطع الحديدية.. والحلقات والسلاسل؟

بادره الموظف بالقول:

ـ كان المدير القديم يريد..

وإذا بالمدير الجديد يقطع عليه الطريق صارخاً في وجهه:

ـ ارفعوا هذه القاذورات من هنا.

ـ على الرأس والعين.

ـ هل هذا معهد.. أم حانة جمباز؟.. المعهد العالي.. يجب أن يكون له حديقة جميلة.. حوض ونافورة للمياه.

عمد المدير الجديد الفاعل البناء على إزالة وتغيير كل ما قام به المدير القديم من أساسه بدءاً من الألوان.. وبدأ بالعمل الجديد.

تم حفر ساحة الرياضة.. وبمعنى أصح حاولوا حفرها فكان مستحيلاً.. لأن هذه الساحة مجهزة بالإسمنت بدءاً من حوض السباحة إلى ساحة الرقص والرياضة. حاولوا تفجيرها بالديناميت.. فتكسر زجاج النوافذ والأبواب.. أتوا بالثاقبات الكهربائية.. ولكن مستحيل.. لم يستطيعوا حفرها بأي شكل من الأشكال.. كان حفر هذه الساحة أصعب من حفر بئر للبترول.

أتوا بالتراب والسماد العضوي ووضعوه فوق كتل الإسمنت.. فارتفع عن مستوى الأرض.. وجاءت الأشجار والأعشاب والأزهار.

وللحقيقة أنها كانت ستتحول إلى حديقة جميلة.. ولكنها لم تكتمل.. وما إن وصل العمل إلى منتصفه.. حتى صدر قرار بنقل مديرنا النشيط المصلح.

وجاء بدلاً منه مدير جديد أكثر عملاً وبناءً.. ومنذ قدومه.. وما إن وقع نظره على أكوام التراب والسماد.. والأشجار.. والزجاج المتكسر.. وما إلى هنالك.. قال صارخاً:

ـ ما هذه الفوضى..؟ هل هذا معهد للدراسات العليا أم حديقة للنباتات؟

ولما عاد إليه هدوؤه وسكونه قال:

ـ فكوا.. كل هذه الأشياء.. سنعمل هنا ساحة (باتيناج) للتزلج على الجليد.. وما إن انتهوا من رصف الحجارة للطابق الأول من ساحة التزلج على الجليد.. كنا قد انتهينا من الدراسة.

وبينما كانت حفلة التخرج تقام.. كانت الساحة تصب بالبيتون.

وبما أننا غادرنا المعهد نهائياً.. لم أعد أعلم ما قام به المدراء اللاحقون..

وبعد مرور عشرين عاماً.. كان أحد أصدقائي في الدراسة قد صار مديراً لذاك المعهد.. أدامه الله.

○ ○ ○

الكلب المحترم

في البدء تسلق ميزاب البناء ومنه قفز إلى سلم الحريق.. ومن هناك وقبل أن يقفز إلى شرفة الطابق الرابع سلطت عليه الأنوار الكاشفة.. فاجتاز تلك المنطقة المضيئة بسرعة البرق. وانتقل إلى الظلمة.. وانتظر دون أن يصدر عنه صوت أو حركة.

كان خائفاً.. هذا العمل.. هو الثالث.. وفي ليلته الثالثة.

دخل منزل رجل ثري.. وهناك.. أشبع بطنه على أكمل وجه وهرب. في اليوم التالي كتبت الصحف بأن سارقاً غريب الأطوار دخل منزل رجل غني.. وخرج منه دون أن يسرق شيئاً.. فقط أشبع بطنه من الطعام اللذيذ.. في الليلة الثانية أوشك أن يقع في الأسر وأن يقبض عليه.. فقد دخل منزلاً ظنه خالياً من السكان.. وإذا به وجهاً لوجه مع أحد الأشخاص.. وقبل أن يهرب قال قال للرجل:

ـ لا تظنوا بي سوءاً.. أنا جئت إلى هنا كي...

كان يتلعثم في كلامه.. وإذا بامرأة تظهر.. وتصرخ:

ـ آ آ آ.. إنه لص.

فقال الرجل للمرأة:

ـ حسبته زوجك.

وطرد الشاب من المنزل.

إنها الليلة الثالثة.. لقد تملكه خوف شديد.. كان يكره العمل الذي يقوم به.. أراد أن يقوم به لمرة واحدة فقط.. سيدخل منزلاً.. وسيسرق

كمية كبيرة من الأمتعة يبيعها ويتدبر أمره بثمنها ويقلع عن السرقة نهائياً.. سيقوم بعمل منتج وسيربح الكثير.. وقرر أن يأتي إلى صاحب الأمتعة ويدفع له ثمن ما سرقه من منزله.. أو يعيد له كل ما أخذه.

المزاح والمداعبة من طبعه.. يفكر بهما ويمارسهما أينما حلَّ.. في الطريق.. وأثناء جلوسه في الحديقة. وحيثما وجد.

ـ هل تعرفني يا سيدي؟ من المؤكد أنك لا تعرفني.. لأنه متعذر جداً.. وسأهون عليك.. في العام الماضي.. تتذكر.. كان لص قد دخل بيتك. نعم.. أنا هو ذلك اللص الذي سرقك. بعت الأغراض التي سرقتها بألفين وثمانمئة ليرة.. ماذا؟ هل تساوي عشرة آلاف ليرة؟ بالتأكيد.. تساوي.. ولكن.. بما أنني لص.. أجبرت على بيعها بثمن بخس.. لأني لم أكن أعرف سعرها الحقيقي.. المهم.. سأدفع لك قيمة أمتعتك.. تفضل يا سيدي هذه عشرة آلاف ليرة.. وهذه ألفا ليرة أيضاً.. أرجو أن تقبلها مني عربون وفاء لجميلك.. أو تقبلها مني فائدة مبلغ العشرة آلاف ليرة لعام واحد.

أنت غير محتاج لهذا أليس كذلك؟ إذن أعط هذا المبلغ لجمعية خيرية. وأعتذر منك لأنني أتعبتك كثيراً. مرحى أنا الآن إنسان نقي نظيف وشريف. بعت الأغراض التي سرقتها منك.. وبثمنها أصبحت إنساناً يعمل ويتعب ويكد.. رضي الله عنك في الدنيا والآخرة..

تساءلت كثيراً لو طلبت منك مالاً.. هل كنت تعطيني؟ بالتأكيد.. لن تعطيني.. وهل تعطي إنساناً لا تعرفه مبلغ ألفين أو ثلاثة آلاف لية..؟ وها أنذا قد جئت لأنك كنت سبباً في جعلي رجلاً على أكمل وجه.. أعمل وأعيش بشرف وأخلاق. والآن أضع نفسي بين يديك.. فإن أردت أن تسلمني للبوليس هذا شأنك.. اعمل كل ما يمليه عليك ضميرك.. وإن أردت فاعف عني. وهاأنا كما تراني.. لا أهرب.. وطوع إرادتك أنا معك.

أعرف أنك تضايقت كثيراً.. ولكن صدقني أنني تألمت أكثر منك طوال عام أو أكثر.. أنا من يعرف ما عانيته.. إن تأنيب الضمير وعذاب الوجدان.. أكبر عذاب للإنسان. لو كان هذا المال مالي ربما لم أنصرف مثلك.. عملت كثيراً ودون توقف كي أرد لك مالك في أقصر فرصة ممكنة.. أتعلم ماذا كان سيحصل لو أنني لم أربح شيئاً.. عندها كنت سأسرق مرة أخرى.. كنت بحاجة ماسة للعمل.. آه يا سيدي.. ما من إنسان يتمنى أن يسرق.. ولكن ما العمل؟ هل السرقة شيء حسن يعني؟ أبداً.. لا أحد يشعر بذل السرقة ومهانتها.. أكثر من السارق.

مرة وقف على زاوية الشرفة المظلمة يتسلى.. فرأى شيئاً يقف أمامه.. تحسسه بيديه.. إنها خزانة من الشبك.. قال له أحد السارقين المحترفين مرة:

ـ جميع اللصوص يفكرون مثلك قبل أن يسرقوا.. ولكن ما من سارق يرجع ما سرقه أبداً.

لمس باب الشرفة بيده.. تحرك ببطء ومدَّ يده. زجاج النافذة مكسور بقدر دخول اليد. شمر عن ساعده.. وأدخل يده وأدار مفتاح النافذة. ويا لها من عتمة شديدة.. هذا المكان يجب أن يكون المطبخ.. مشى.. أشعل عود ثقاب.. شاهد كل شيء.. أطفأ عود الثقاب ثانية واتجه صوب الباب.. فتحه.. هواء حار دافئ لف جسده.. دخل غرفة.. كان قلبه على وشك التوقف.. كان شخصان يتحدثان في الغرفة.. ركع على ركبتيه. لم يرياه.. لو شاهداه لتوقفا عن الحديث.. تعودت عيناه ببطء على الظلمة.. كان قريباً من الديوانة.. جلس على الأرض.. وزحف ببطء حتى دخل تحتها.. المتحدثان.. رجل وامرأة.. يجلسان عليها.

كان خائفاً حتى من التنفس.. لم يستطع الرجوع.. خشية اكتشافه..

أفضل شيء أن يظل هكذا.. ينتظر نومهما.. كانا لا ينامان أبداً.. يتحدثان ويتحدثان.

المرأة:

ـ أنا أخرجه يا حبيبي.. في المرة الماضية أخرجت مئتين وخمسين غراماً.

قال الرجل سائلاً:

ـ وإذا قبضوا عليك..؟

ـ لا تخف.

ـ إياك أن تعطي اسمي.

ـ هل أنت مجنون..؟ آخر مرة ذهبت مع زوجي.. وعدت بثمانية وعشرين ألف دولار.. ولم يشعر أحد.

أطلق الرجل صفرة من شفتيه وقال:

ـ ثلاثمئة ألف ليرة من البورصة السوداء.

ـ ماذا حسبت يعني؟

ـ أنت امرأة رائعة وِلِكْ.

وغرقا في قبلة طويلة..

ثم بدأت رعشات النوم تسري في أوصالهما.

شاهد الشاب الموجود تحت الديوانة شيئاً أبيض.. فروة بيضاء ناعمة.. إنها واضحة.. قرر أن يأخذها ويذهب.. نعم. وذات شعر طويل.. ناعمة.. دافئة.. فروة بيضاء.. مدَّ يده وسحبها.. لقد تحركت.. صار فيها حياة.. كأنها؟.؟.؟...

ـ هيررر.. هيررر.

لو لم يسحب يده لعضه الكلب من يده.. استيقظت المرأة وصرخت:

ـ اسكت جولي.

ـ هيررر.

ـ أقول لك اسكت جولي.

سكت الكلب ذو الفروة البيضاء.. قال الرجل:

ـ أيقظيني غداً باكراً..

سألته المرأة:

ـ ولماذا؟

ـ علي أن أعمل فاتورة.

ـ أخشى أن تقع في مشاكل بسبب هذه الفواتير المزيفة.

ـ لا تخافي.. أنا أعرف شغلي جيداً.

ـ آمان.. كن حذراً..

ـ قلت لك لا تخافي.. أنا أقوم بعملي جيداً.

ـ وسري أيضاً كان يقول إنه يعرف جيداً ما يفعل.. انظر.. إنه الآن رهن المحاكم.. تتقاذفه هنا وهناك.

ـ سري.. أحمق وأناني.. إذا لم تعط الآخرين.. فالعمل لا يمشي. قلت له هذا الكلام مرات عديدة.. أنا شخصياً شربت الماء من منبعه.. أنحصل على خمسين ألف ليرة.. هكذا لله تعالى.. يجب أن ينظر الإنسان إلى يمينه وشماله.

قالت المرأة:

ـ أنت رجل مخيف.

وغابا في قبلة طويلة.

حتى عاودهما النعاس والنوم ثانية.. أراد الشاب أن يتحرك بعدما تأكد أنهما قد ناما.. وإذا بالصوت:

- هيررر.

قد عاد.

فتح الكلب عينيه فصارتا تلمعان في الظلام كأنهما ضوء كبير.

إنه كلب منزل.. كان واضحاً أن الكثيرين يزورون هذا المنزل.. ولهذا السبب.. لم يهجم الكلب على الشاب.. ولم ينبح.. ولكنه لمجرد حركة بسيطة من الشاب.. كان يهرث: هررررر..

قال الرجل بصوت غلب عليه النعاس:

- قلت لك أخرسي هذا الكلب.

- اسكت يا جولي.

الكلب لا يسمع من الكلام.

كان الكلب قد سكت.. وأسند رأسه إلى قائمتيه الأماميتين وأغمض عينيه. قال الرجل:

- لقد هرب النوم عن عيني.

قالت المرأة:

- هل تعرف يا روحي.. كم أتمنى أن يموت هذا الخنزير زوجي.

قال الرجل:

- زوجك لا يموت.. لا يرحل.. إنه بسبعة أرواح. ما مقدار المال الذي يملكه بالتقريب.

- اومو.. هذا البناء فقط يساوي مليوني ليرة.

- وكيف ربح كل هذه الأموال؟

ـ كما يقال: «في كل إصبع من أصابعه العشرة.. معرفة وحنكة».. هل تعرف كيف استولى على هذا البناء؟ يقولون إن مالكة البناء كانت وحيدة.. مسنة.. وليس من يعولها.. فخدعها ووعدها بالزواج.. وعندما وافقت أحضر معه إلى البيت بدلاً من موظف النكاح.. موظف العقارات (الطابو). وبما أن المرأة مريضة ولا تستطيع مغادرة الفراش.. لدى سؤالها: «هل أنت راضية؟» قالت: «نعم». وهكذا وافقت على بيع البناء عوضاً عن عقد زواج. وما لبث المجرم أن رماها بالشارع دون رادع أو وازع من ضمير.

ـ أنا لو كنت مكانك.

ـ ماذا تفعل؟

ـ أسمم هذا الرجل..

ـ أن أيضاً فكرت في ذلك.. ولكن..

ـ لا تخافي.. سنجد طريقة مناسبة.. يعتبر معها أنه انتحر.

ـ أنت رجل رائع..

قبّلها.. ثم عاودهما النعاس وأخلدا للنوم.

لم يعد الشاب يفكر بالسرقة.. وكل همه أن يخلص نفسه من هذا المكان.. كان بإمكانه مغادرة الغرفة.. دون أن يحس به أحد.. السجاجيد كانت ناعمة.. لا تحدث الخطوات عليها أي صوت.. ولكنه لو حرك إصبعه فقط لكان الكلب له بالمرصاد.. مد رجله ببطء شديد.. ففتح الكلب عينيه على الفور.. وتوقف الشاب.. كانا ينظران إلى بعضهما.. واستمرا هكذا بعض الوقت .. إلى أن أغلق الكلب عينيه.

حاول الشاب خداع الكلب.. وجعله ينام.. جثا على ركبتيه.. ثم تحرك ببطء.

ـ هيرر.. هيرر..

قال المرأة:

ـ ماذا حصل للكلب في هذه الليلة؟ هل جننت يا جولي؟ هيا نم.

قال الرجل:

ـ قليل الناموس هذا سأخنقه.. ليكن عندك علم.. هل يهرهر هكذا لأنني غريب في البيت؟

قال المرأة:

ـ لا.. يا روحي.. لا يخاف من أحد.. إنه متعود على الناس.. ولكن ماذا جرى له؟ لست أدري.. يبدو أن شيئاً أصابه هذه الليلة.. ثم إنه لا يراك لأول مرة. حتى بالذين يراهم لأول مرة.. لا يرفع صوته.

ـ هيررر..

ـ إذن لماذا يهرهر هكذا على الدوام..؟

ـ يا حبيبي.. هذا الكلب معجزة نادرة.. إنه يحترم ويأنس بقدر ما يعاشر الناس المحترمين.

ضحك الرجل وقال:

ـ أرجوك أن تسكتي.. هل هناك كلاب محترمة؟

ـ والله.. يقصد منزلنا أناس كثيرون.. ولا نسمع صوته.. أما إذا دخله أحد أفراد كرة القدم.. فيظل يهرهر هكذا على الدوام. كيف يعرفه..؟ لا أدري. أمن رائحته أم من شيء آخر؟ لا أعلم.

ـ لقد أدركتنا الصباح.. وغداً سأذهب إلى أنقرة من أجل العمل الآخر.

ـ هل رضي الشخص بذلك؟

ـ ولماذا لا يرضى..؟! أعطيته عشرة آلاف ليرة فقال: «هذا قليل».. هذه المرة سأعطيه خمسة عشر ألفاً.. وإذا لم يرض سأعطيه عشرين. المهم.. في النهاية سيرضى.. كل منهم له سعره. وبما أن للإنسان فماً.. فمعناه أنه سيأكل..

ـ أنت رجل رائع..

قبلها أيضاً بعمق وعاد النعاس لمداعبة أجفانهما.

عندما شرع الشاب بتحريك ركبتيه. فتح الكلب ذو الفروة البيضاء عينيه وبدأ بالهرهرة.. عندها فهم أنه لا مجال للتخلص من الكلب وعليه أن يهرب من ذلك المكان.

ـ هيررر.. هيررر..

انتهرت المرأة الكلب:

ـ اسكت جولي.

نهض الشاب من مكانه.. وانسل كالبرق.. مسرعاً نحو الباب.. والكلب من ورائه.

ـ هيرررر..

قالت المرأة:

ـ حتماً يوجد شخص ما.

هب الرجل واقفاً تاركا فراشه.. أشعل المصباح.. وفجأة بدأ بالصراخ.. وصار الكلب يعوي.. وصاحت المرأة بملء شدقيها:

ـ النجدة.. حرامي..

صارت الصفارات تدوي في الشارع.. المرأة تستنجد.. والرجل يصرخ.. والكلب يعوي..

اتجه الشاب نحو الباب الخارجي.. فوجده مغلقاً.. لا يفتح.. لم يفطن

إلى الطريق الذي جاء منه.. لأنه لم يهتد إلى مخرج بسبب العتمة.

وصل بواب البناء ثم الحارس الليلي.. فتح الرجل الباب.. بينما الشاب جمد في مكانه مصفراً كأوراق الخريف. دخل البواب ثم الحارس.. أما الكلب فلم يتوقف عن النباح.

قالت المرأة:

ـ هذا هو اللص.

نظر البواب إلى الشاب من الأعلى إلى الأسفل.. ثم بصق في وجهه:

ـ توه.. ألا ترى نفسك كبر الحمار..؟ لماذا لا تعمل وتكسب من عرق جبينك..؟

أما الحارس فقد وجه صفعة إلى وجه الشاب وقال:

ـ ألا تخجل من لصوصيتك هذه؟

كان الكلب.. ينظر مرة إلى الحارس ويعوي.. ثم يلتفت إلى البواب والشاب ويعوي. قالت المرأة للرجل:

ـ الم أقل لك أن جولي يعرف الناس الذين يضعون الرسن في رقابهم من رائحتهم؟

قال البواب للمرأة:

ـ الشيء الجميل أنك اسيقظت لأن زوجك غير موجود.

قالت المرأة:

ـ نحن لم نستيقظ.. لكن جولي هو الذي أيقظنا.

ثم حملت الكلب بين ذراعيها.

ـ اسكت يا جولي..

لاحظ الرجل أن المرأة قد ظهرت بثياب النوم الداخلية فقال لها:

ـ سيؤذيك البرد.. ضعي شيئاً ما على جسدك.

بينما كان الحارس والبواب والشاب في وسطهم.. يهبطون الدرج.. كان الكلب الغارق في صدر المرأة.. يعوي دون توقف.

قال الرجل:

ـ أنا لم أر في حياتي كلباً محترماً ومحظوظاً مثل هذا الكلب..! إنه يعرف اللص السيء الحظ من رائحته.

○ ○ ○

زر البنطال

ذهبت إلى إحدى الدوائر الحكومية لإنهاء عمل ما.. دام أكثر من عامين.. كنت على وشك أن أنهيه.. ولم يبق لإنجازه سوى التوقيع والخاتم.. ليس إلا.. وهما عند صاحبة المكتب الذي تركت عليه محفظتها.

كانت محفظتها ومرآتها ومشطها وأدوات زينتها على الطاولة.. أما هي فلم تكن موجودة.

بقيت حارساً لهذه الأشياء أكثر من ساعة.

ربما شعرت المرأة بأنني على عجلة من أمري.. جاءت بعد مدة طويلة.. وجلست على كرسيها. كان الجو حاراً.. كانت السيدة تلبس صدارة عمل سوداء.. وبما أنها بدينة.. كانت أزرار قميصها معلقة بصعوبة.. وعراويها توشك أن تتمزق.. وقميصها الداخلي ذو اللون الأحمر الفاقع.. يتراءى بعض الشيء فوق صرتها.

الأحمر الفاقع.. لون يلفت الأنظار.. حتى ولو كان على المفروشات أو الألبسة.. حتى وإن كانت من لون مغاير ووضعت أو علقت عليه أثناء العرض.. يبقى محافظاً على جاذبيته. ومع أن الألوان كانت متناسقة وجميلة.. إلا أن شكلها لم يكن على مستوى تلك الألوان.. وبدت متناقضة مع قوانين الرسم العامة.. وبما أن المنظر ليس مغرياً كما ينبغي.. نقلت نظري إلى الناحية الأخرى.. صوب ذلك الموظف الجالس قربها. هذا المسكين أيضاً كان أكثر شروداً وإهمالاً.. لقد نسي تزرير بنطاله.. المسكين معذور لأنه متقدم في السن.. ومع أن كبر السن يخفف إلى حد

كبير من مخاطر عدم تزرير بنطاله ويبعد الشكوك إن وجدت.. ومع هذا فإنه عمل غير مناسب.

في الغرفة بعض المواطنين ينتظرون إنجاز معاملاتهم.. ناهيك عن موظفي الدائرة الآخرين.

صرخت بالموظف العجوز:

ـ شيش.. شيش.

قال:

ـ ماذا هناك؟

يا الله.. ماذا هناك؟! آ.. أشرت له بإصبعي إلى مكان فتحة البنطال غير المزررة.. ظن أنه أسقط شيئاً على الأرض. وانحنى.. وبدأ بالبحث تحت الطاولة.. ثم رفع رأسه وقال:

ـ ماذا هناك؟

ماذا أفعل؟.. لو انتبه الآخرون إلى ما أقصده.. سيخجل الرجل. أنا شخصياً لم يحدث معي ولا مرة.. ولكن بالتأكيد شروده غير طبيعي.

هذه المرة أشرت له بإصبعي.. قال الرجل:

ـ لا أرى شيئاً.

قلت: بالتأكيد لن ترى شيئاً. لأن بنطالي مزرر.

أشرت له مرة أخرى..

مرة أخرى سألني:

ـ ماذا هناك؟

حاولت إفهامه فأشرت له بيدي.. بكتفي.. برأسي.. بركبتي.. وهو على الدوام يصرخ:

ـ ماذا هناك؟

وربما عينا المسكين لا تريان جيداً.

سألني:

ـ هل فكت الأزرار؟

همست له:

ـ نعم.

أشرت بإصبعي.. قال:

ـ هل تمزق؟

هنا تدخلت الموظفة وقالت:

ـ ألم تفهم..؟ الرجل يشير إلى القماش.

فأومأت لها برأسي بالنفي.

قال الرجل ذو الأزرار المفكوكة:

ـ إنه قماش محلي.. رخيص الثمن.

كان كالبغل الذي يهرس العلف في فمه.. حركت رأسي عدة مرات نحو الأعلى والأسفل.. قال:

ـ هل تسألني من خاط لي هذا البنطال..؟ أليس كذلك؟

قالت الموظفة اللابسة الصدارة السوداء.. والتي خرج قميص نومها فوق صرتها؟.؟.؟.؟ بطيخ أحمر.

يا روحي.. الرجل منذ ساعة وهو يشير إلى أزرار بنطالك.

إنها الحقارة بعينها.. لأن المرأة قد لاحظت أيضاً.. وأضافت قائلة:

ـ لا يستطيع الإنسان أن يجد أزراراً مقبولة وقوية في السوق.

يا الله.. لم يفهم.. قالت السيدة الأخرى:

- حالياً يضعون الأزرار من البلاستيك.. إن وضعتها في الماء الساخن تتحول إلى ما يشبه المعجون اللين.

الله.. الله.. هل الزر..؟ ألا يمكن للإنسان أن يخيطه بإبرة عادية؟ حركت شفاهي.. يميناً ويساراً.. في النهاية ضاق الرجل ذرعاً بحركاتي وقال صارخاً:

- شوفي ولك أخي..؟ تكلم بصراحة.

قالت السيدة الثانية:

- لا شيء يا عيني.. ألا ترى أن الرجل مصاب بمرض عصبي.. انظر إلى عينيه وحاجبيه كيف يتحركان.

- وقانا الله من ذاك المرض.. إنه شيء فظيع.

لم أستطع أن أتمالك نفسي فبدأت بالضحك.

قال الرجل:

- لماذا تضحك..؟ هل رأيت شيئاً مفتوحاً؟

هززت رأسي بالإيجاب. قالت المرأة:

- ألم أقل لك هذا الرجل عنده مرض في الأعصاب؟

عضضت على شفتي السفلى شعوراً بالعيب.. وأشرت بيدي.

قال الرجل:

- آ آ آ.. فهمت.. لقد فكت ربطة الفوتين.. إنه يشير إليها.

أمام غبائه.. أصبحت مجبراً على الكلام.. وربما أستطيع أن أفهمه بشكل غير مباشر.. فقلت:

- إنهم يعلقون بعض اللوحات في مراحيض الرجال.. يكتبون عليها: (لا تنسوا تزرير بنطالكم).. أليس جميلاً؟

قال الموظف العجوز:

ـ هذا والله شيء جميل يا أخي.. ولكن خيوط اليوم ليست كما يرام.. تتقطع خلال يومين.. وتتقطع الأزرار معها..

قالت السيدة ذات الثوب الداخلي الأحمر:

ـ آمان.. كم هو معيب ألا يزرر الرجال بناطيلهم..!

قلت:

ـ أليس كذلك؟

قال العجوز:

ـ هذا يحصل أحياناً عندما تكثر هموم الإنسان.. فيشرد بفكره.. أو يتذكر الديون وغيرها فلا يفطن إلى تزرير بنطاله.

قالت السيدة الأخرى:

ـ مهما حصل.. على الإنسان ألا ينسى تزرير بنطاله.

في هذه الأثناء.. صدر صوت كأنه صوت سقوط صحن.. وكانت أزرار قميص المرأة التي تتكلم قد فكت جميعها.. وظهر مطاط السروال.. وقسم من قميصها الداخلي.. قال الرجل العجوز:

ـ هل ينسى الرجل تزرير بنطاله.. إنها قلة تربية.. أليس كذلك؟

ـ نعم.. نعم.. هكذا..

ـ أستغفر الله.

ـ لا.. لا.. هذا لا يمكن.. إنه لا يطاق ولا يحتمل (إنه الحمرنة عينها).

صارت المرأتان تقهقهان بصوت عال.. لقد فهمتا القصة من أساسها.. وكان الموظف العجوز يثرثر دون توقف.

ـ كررت على مسامعه معاني نفس الكلام.. أن يكون الإنسان امرأة.. أسهل بكثير من أن يكون رجلاً.. لأن النساء لسن بحاجة إلى تزرير بناطيلهن لأنهن لسن بحاجة إلى فتحة للبنطال.

كانت المرأتان تضحكان تضحكان بشكل عجيب.. وقد وضعت كل منهما يدها على خصرها وصارت تضحك.. وعندما أشارتا إلى بنطالي.. قلت لهن:

ـ يا يا يا.. منذ وقت طويل وأنا أشير إلى ذلك.

ضحك جميع من في الغرفة.. ومن كثرة الضحك سقط بعضهم على الأرض وبعضهم فوق المكاتب.. وكلهم يشيرون إلى أزرار بنطالي.

نظرت إلى المكان المؤشر.. آمان.. يا ربي! ماذا أرى؟!

اسكتوا.. اسكتوا.. لم أعد أذكر كيف قذفت بنفسي إلى الخارج.. وأول عمل قمت به هو أن زررت بنطالي.. وهربت من هناك.

بقيت الأوراق في الدائرة ولم أستطع الذهاب إليها لشدة خجلي.. وقلت أنتظر بعض الوقت.. ربما ينسى الموظفون تلك الحادثة أو ينسونني..

ooo

أشتري القديم (المستعمل البالي)

إنك تنظر إلى وجهي أليس كذلك يا سيدي؟ كل الناس عندهم فضول لمعرفة سبب تشوهه.. بعد تلك الحادثة.. مال فمي إلى جهة.. وتمزقت شفتي العليا. وحتى الآن لم أضع بديلاً لأسناني.. وحاجبي أوشك أن ينفجر.. وتحطم فكي.. وصار عشرين قطعة. لم يتمكنوا من إصلاحه أكثر من ذلك.. وأنفي تحطم وتمزق.. انظر يا سيدي.. هذه صورتي قبل الحادث.

هل من وجه شبه بيننا؟ ما انهار بناء فوقي.. ولم أقع تحت أنقاض زلزال.. ولا ضحية اصطدام سيارتين.. لا.. لا.. حتى ولست جريح حرب.. ولم أتعرض لأي واحدة من هذه الحوادث.

كل ذلك حدث لي في حياتي العملية.. ولولا خوفي أن أزعجك لرويت لك قصتي. انظر هذه الصورة.. تصورتها قبل عامين.. آنذاك كان كل من أنفي وفمي في مكانه.. بعد تلك الحادثة أصبحا هكذا.. القصة طويلة نوعاً ما. عملت موظفاً صغيراً في شركة خاصة.. ورب أسرة كبيرة.. أعيل أكثر من سبعة أشخاص.. وبراتب موظف عادي صغير.. كانت الأمور صعبة جداً.. قلت لهم: «خذوا وضوئي وأعطوني بابوجي».. قدمت استقالتي.. على أمل أن أعمل بالتجارة.

شراء وبيع .. فما سأبيعه.. يحتاج إلى مال أشتريه به قبل بيعي له.. فإن أردت بيع الليمون الحامض.. ولا أملك مالاً أشتري به صندوقاً منه نكون قد بدأنا بالبيع قبل الشراء.

وكما تعلم يا سيدي أن هذا غير معقول.. بدأنا نبيع كل الأمتعة القديمة في منزلنا.

بعد أن انتهينا من ذلك.. خطرت برأسي فكرة.. يجب أن أعمل تاجراً للأمتعة المستعملة.. كنت أعرف أن هذا العمل يدر أرباحاً كثيرة.. والبضاعة التي تساوي أكثر من خمسين ليرة..لا يدفع المشترون فيها أكثر من خمسين قرشاً.. نعم كنت أعرف ذلك.

أفرغت أحد الأكياس الموجودة في المنزل.. ووضعتها على ظهري وخرجت إلى الشارع.. وبدأت أصيح:

ـ من عنده أمتعة مستعملة للبيع..؟

كنت لا أملك سوى ليرتين ونصف.. لو عرضوا علي بضاعة بقيمة خمس وعشرين ليرة أو ألفين وخمسمئة ليرة.. لما تمكنت أن أدفع سوى ليرتين ونصف.

ـ من عنده أغراض مستعملة للبيع.

ـ ؟.؟.؟.؟.؟.؟.؟.؟.؟.؟.؟.؟.؟.؟.؟.؟ (الذي يشتري القديم) (حرفياً. المترجم).

ـ أفندم..

إنها امرأة تحمل (ثريا) ذات ثلاثة مصابيح.. وكنت قليل الخبرة في تحديد الأسعار.. ولكن هذه الثريا تسوى قرابة المئة ليرة.

قلت للمرأة بعد أن احتفظت لنفسي بخمسين قرشاً أجرة العودة إلى البيت:

ـ أعطيك ليرتين.

فقالت بعد أن رشقتني بكلمات نابية:

ـ اذهب من هنا.. وأغلقت الباب..

وعدت أنادي:

ـ من عنده أغراض مستعملة؟

أما الرجل الذي أخرج الديوانة المخصصة لشخصين.. فقد انتهرني قائلاً: «انقلع من هنا» عندما دفعت له ليرتين ونصف..

درت المدينة شارعاً شارعاً وحارة حارة.. وعلاوة على أنني لم أستطع شراء شيء.. كان الجميع يطردونني.. عند كل مساومة.

في إحدى الزوايا كان تاجران مثلي قطعا علي الطريق وسألاني:

ـ من أين جئتنا كالشيطان؟

قلت:

ـ ما هذا الكلام التافه؟ أأنتما من يحق لهما السؤال؟

كان أحدهما يهودياً والآخر غجرياً.. قالا:

ـ هذا غير ممكن.. لن تستطيع شراء شيء من هذه الحارة وهذه الشوارع.

ـ ولماذا؟.. أنا أستطيع الشراء من كل المدينة وبكل سهولة.

ـ من الواضح أنك حديث العهد في هذا العمل.. تستطيع فعل ذلك.. ولكنك لا تستطيع أن تشتري شيئاً على الإطلاق.. وكما يقولون لكل عمل قواعده وقوانينه..

لقد تقاسما الشوارع والحارات فيما بينهما. ولا يحق؟.؟.؟.؟.؟ القديم أن يدخل منطقة زميله الآخر.

ـ حسن.. وماذا سأفعل.. ؟ يعني ألا يحق لي أن أعمل بهذه التجارة؟

كان الغجري واليهودي إنسانين طيبين.. فقالا:

ـ تستطيع أن تعمل.. ولكن.. نحن تسعة.. نضمك إلينا فنصبح عشرة.

تواعدنا أن نلتقي مساء في أحد المقاهي.

تقابلنا في المقهى وكان ممن وجدتهم هناك غير اليهودي والغجري اللذين أعرفهما.. يهودي آخر وثلاثة غجر واثنان من (سيواس).. وواحد من أنقرة.. ومواطن من مدينة (نيغدا).. وأنا الوحيد بينهم استانبولي.

شرحوا لي حيثيات العمل الذي نقوم به:

- نحن عشرة أشخاص.. نخرج إلى الشارع.. خلف بعضنا البعض.. وبين الواحد والآخر أربعون أو خمسون خطوة.. أو مائة خطوة كحد أقصى.. على أن لا يغيب أحدنا عن نظر الآخر.. هل فهمت؟

- فهمت.

- يبدأ من في المقدمة بالصراخ: «من عنده أغراض مستعملة للبيع».. أما الذي يليه فلا يرفع صوته. هل فهمت؟

- فهمت.

- إن ظهر شخص ينادي من في المقدمة.. ويريه غرضاً أو مالاً أو متاعاً. لنقل إن ذاك الغرض يساوي عشر ليرات.. فيدفع له الشاري الذي في المقدمة.. ثلاثين ليرة. هل فهمت؟

- هذه النقطة لم أفهمها.. كيف يدفع ثلاثين ليرة لمتاع لا يساوي سوى عشر ليرات؟

- يا روحي.. عيون البشر لا تشبع.. إذا دفعت ثمن الشيء الذي لا يساوي أكثر من عشر ليرات.. ثلاثين ليرة.. فيغره الطمع بالربح.. وينتظر الشخص الأحمق الذي سيشتري منه الشيء الذي اشتراه هو منذ عشرين عاماً واستعمله بعشرين ليرة وينتظر ليبيعه بأربعين.

- جيد.. وإذا قال: «هات ثلاثين ليرة» وباع المال..؟

- في تاريخ عملنا هذا.. لم نتعرض لهذا الموقف.. عندما تدفع له

ثلاثين ليرة.. يطلب الرجل خمسين ليرة.. فتقول له: «يا سيدي لا أحد يدفع لك أكثر من ثلاثين ليرة».. وتبدأ بالصراخ.. أنا لا أتدخل.. فتؤشر للشاري الذي خلفك برفع خمسة أصابع ستة مرات.. أي ثلاثين. فيبدأ الذي خلفك أيضاً بالصراخ: «اشتر ما يعرضه عليك».. الخ. هذه المرة يناديه الشخص نفسه.. فيدفع له فقط خمس عشرة ليرة.. يطرد البائع ذلك الشاري أيضاً.. فيؤشر المشتري الثاني للذي خلفه.. خمس عشرة بأصابعه.. يأتي الثالث: «من عنده..».. فيناديه الرجل.. عند ذلك يعطيه المشتري الثالث السعر الحقيقي.. يعني عشر ليرات. وبما أن المشتري الأول دفع له ثلاثين ليرة.. فيغضب البائع.. ويعتبر نفسه خسر من جيبه عشرين ليرة.. فيطرد المشتري الثالث.. المشتري الرابع يأخذ الإشارة من زميله بأنه دفع عشر ليرات.. فيأتي الخامس من خلف الرابع ويدفع خمس ليرات.. الشاري السادس يدفع أربع ليرات.

كل مشتر ينقص من ثمن البالي ليرة.. فيندم الرجل لأنه لم يبع المتاع للمشتري الأول لأنه لاحظ أن قيمة ما يريد بيعه تنقص مع مرور كل مشتر جديد.. ويقول: «الله لا يعوض عليك».. ويبيعه إما للمشتري السابع أو الثامن.. هل فهمت؟

- من ناحية الفهم.. فهمت تماماً.. ولكن إذا لم يبعه؟

- يبيعون لأنهم بحاجة ماسة إلى للمال.. فإن لم يبع البالي في اليوم الأول يبيعه في اليوم الثاني.. هذه المرة يدفع له المشتري عوضاً عن الثلاثين ليرة.. خمس ليرات فقط.

الآن فهمت ماهية العمل وكيفية القيام به.. عشرة أشخاص سنعمل معاً ونشتري.. ونتقاسم الأرباح في نهاية كل يوم.. وعلى كل الأحوال.. كل منهم كان يرفض أن يكون دوره العاشر.. فقالوا لي:

ـ أنت إنسان جديد في هذا العمل (أي أعجمي).. خذ الدور العاشر.. بحيث يكون ترتيبك الأخير.

في اليوم التالي.. جرجنا باكراً.. كل منا يراقب الآخر. وأولنا.. ذلك اليهودي. فبدأ بالصراخ:

ـ من عنده.. أشتري المستعمل والقديم..

فنادوه من إحدى الأبنية.. دخل.. وبعد عدة دقائق خرج. فأشار لزميلنا الثاني بأصابعه مئتي ليرة.. المشتري الثاني.. من سيواس.

كنت جالساً في زاوية.. أنتظر مجيء دوري كي أتحرك.. فخرج السيواسي أيضاً.. فأشار بيديه مائة ليرة.. بعده خرج الثالث فهز يده عشر مرات.. يعني أنه قد دفع خمسين ليرة ثمناً للشيء. أما الرابع وهو الغجري.. أشار لنا بأنه دفع ثلاثين ليرة.. أما زميلنا الخامس.. اليهودي.. دفع عشرين ليرة.. لكن الرجل رفض أن يبيع المتاع بهذا السعر.. أما أنا فكنت أدعو الله ببيعه قبل أن يجيء دوري.

زميلنا السادس أشار بثلاث هزات من يده.. يعني خمس عشرة ليرة.. والسابع عشر ليرات.. الثامن خمس ليرات.. أما التاسع فأشار بأربع ليرات.. وهكذا جاء دوري.. وإذا لم يبع الرجل بضاعته فيعني أنه قد بقي لليوم التالي.. وربما لن يبيعه أبداً..

بدأت بالصراخ والكيس المرقع على كتفي:

ـ من عندو.. أغراض مستعملة للبيع؟

ـ يا (عثفجي).

اقتادني الرجل إلى داخل البناية.. لم أكن خبيراً في البالي وأسعاره.. ولكن المزهرية التي أراني إياها.. كانت بطول ثمانين سنتيمتراً تقريباً.. إنها تحفة فنية.. تساوي على الأقل خمسمائة ليرة. تبدو أثرية (أنتيكا) جيدة.

قال الرجل:

- هذه المزهرية التي تراها.. ذكرى بقيت لي من جدي الفارس المشير (أكساك رضا باشا).. وليس لها مثيل أبداً.. إنها أثرية.. يقبلون يديك.. بعتها لهم بخمسمائة ليرة.. اسمع سأكون صريحاً معك.. أنا أخجل أن أحمل هذه المزهرية وأبيعها في السوق.. وبما أنني بحاجة ماسة إلى مائة وخمسين ليرة أعطني المبلغ.. وهذه المزهرية.. والله.. الشاري الذي قبلك دفع مئتي ليرة.. ولكنني لم أبعها. أما أنت سأعطيك إياها بمائة وخمسين ليرة.

أشفقت على الرجل.. ومن الواضح أنه كان بحاجة ماسة للمبلغ.. أنا الآخر بعت أثاث منزلي بسبب صعوبة العيش.. أعرف وضع الإنسان المحتاج.. ولكن ما العمل؟ وبما أن آخر زميل دفع له أربع ليرات.. فلن أستطيع أن أدفع له أكثر من ثلاث ليرات.. وحباً بالإنسان والإنسانية دفعت من حسابي خمسين قرشاً. قلت:

- سأعطيك ثلاث ليرات ونصف.. لأنها إذا شقت نفسها لا تساوي أكثر من ذلك.

وكما تعلمت من زملائي.. كنت أتحدث بطلاقة:

- وغيري لا يزيد قرشاً واحداً عما دفعت لك.. أنا شخصياً ربما أبيعها بأربع ليرات وأربح خمسين قرشاً.. وربما لن أستطيع بيعها مطلقاً.. وتبقى عندي.. فالأمر عائد لك.. هل تبيعها أم لا. وليكن معلوماً لديك هو أنك لن تستطيع بيعها بأكثر من هذا السعر.. وإذا عرضتها علي ثانية.. لن أشتريها بهذا السعر.

وفيما كنت أتحدث معه أخرجت ثلاث ليرات ونصف كي أفتح شهية الرجل.. فرأيت وجهه يتبدل أشكالاً وألواناً.. من أحمر إلى أصفر.. ثم صار أبيض كالجدار. قال:

ـ حسن.. عندي شيء آخر في الداخل أريد أن أبيعه.

حملت المزهرية المعدنية.. كانت ثقيلة جداً.. رفعتها من مكانها بصعوبة وذهبنا معاً إلى مخزن الفحم.. وبعد أن أقفل الباب خلفنا.. قال:

ـ يا قليل الناموس.. لو بعتها خردة لساوت أكثر من مائة ليرة.

ورفع المزهرية.. وانهال ضرباً على وجهي ورأسي.. تورمت جلدة رأسي كحبات البطاطا.. تحطمت عظام أنفي.. كسر عظام فكي.. انفجر حاجبي.. ومال فمي نحو اليمين..

ـ أقبل رجلك.. دعني يا سيدي.. لا تفعلها يا سيدي.

فما كان منه إلا أن أمعن ضرباً علي بالمزهرية.. ثم غبت عن الوعي.. ولم أجد نفسي إلا في المشفى.. وهكذا تحول وجهي إلى ما هو عليه.. ومع هذا لم أحزن على نفسي أكثر مما حزنت على المزهرية.. لأنها صارت مشوهة أكثر من وجهي.. ولا أحد يشتريها بأكثر من خمسين قرشاً.

○ ○ ○

لولا وجود الذباب

كان دائماً يردد وهو في العاشرة من عمره:

ـ آه لو أنني أملك محفظة.. آه لو أنني أملك مثل باقي الأولاد.. كتباً وألعاباً.. وروايات.. ليروا كيف أعمل.. وبما أنني لا أملك شيئاً.. كيف سأعمل..؟!

* * *

عندما بلغ الثالثة عشرة.. صار عنده كتب وألعاب ودفاتر ومحفظة.. مثل باقي الأطفال.. ولكنه لم يعمل شيئاً مطلقاً.. وصار يقول:

ـ كيف أعمل.. وليس عندي ألبسة مثل زملائي..؟ وجميعنا نعيش في غرفة واحدة.. أبي.. أمي.. إخوتي..؟ هل يستطيع الإنسان أن يدرس في مثل هذا المكان الضيق..؟ آه لو عندي طاولة خاصة بي.. وخزانة لي وحدي.. عندها ترون كيف أقرأ.

* * *

في الثامنة عشرة من عمره صار عنده غرفة خاصة به..

ـ إنسان مثلي.. وفي عمري.. لا يوجد في جيبه عشر ليرات (خرجية).. كيف يقرأ ويعمل..؟ يجب أن أشتري كتباً.. وصوراً.. آه.. آه.. عندها أعرف كيف أدرس.

* * *

في العشرين من عمره تحققت جميع رغباته..

ـ آه لو كانت المدرسة في ساحة واسعة.. لكان للحياة طعم آخر..

وكانت المدرسة شيئاً آخر.. عندما أنتهي من الكلية.. ماذا سأعمل؟ ماذا سأعمل؟ سيرون.. سأكتب شعراً إبداعياً.. إذا.. آه.. آه.. لو كانت الكلية في ساحة واسعة.

* * *

في الرابعة والعشرين من عمره انتهى من الكلية وظل يقول هذا الكلام:

ـ لا أستطيع أن أعمل.. كما أشتهي.. لأنني أفكر بالخدمة العسكرية.. آه لو أنهيت الخدمة العسكرية.. لعملت ليل نهار.. دون توقف.. والأثر والإبداع لا يظهران إلا بالعمل.. سأترك كتابات تجعل كل الناس يتحدثون عني.. آه.. لولا هذه الخدمة الإلزامية..

* * *

في السادسة والعشرين من عمره.. أنهى خدمته الإلزامية:

ـ لن أعمل كي أبدع.. حاولت كثيراً فكان من رابع المستحيلات أن أعمل.. وإلا كيف سأكتب؟ أجري كل يوم خلف لقمة العيش.. كيف يعمل الإنسان.. إذا كان ملتزماً بعمل ثابت ودخل ثابت..؟ آه لو أجد عملاً ثابتاً مناسباً.. لبقيت ساهراً طوال الليل كي أنهي مؤلفاتي.

* * *

في الثامنة والعشرين.. تيسر له عمل ثابت ودخل ثابت.. وظل يقول:

ـ لا أعمل والسلام.. كيف أعمل وأنا على هذه الحال؟ يجب أن يكون للإنسان غرفتان ومذياع.. على موسيقاه يأتيه الإلهام والإبداع.. هكذا.. أعمل دون توقف.. آه.. آه.. لو عندي مذياع (راديو).

* * *

في التاسعة والعشرين من عمره استأجر غرفتين في أحد الأبنية..

واشترى مذياعاً.. ومع هذا لم يكن يعمل كما يريد.. ولا يعطي ذاك الأثر الذي كان يفكر فيه منذ سنين طويلة.. ويقول دائماً:

ـ آه.. آه من هذه الوحدة.. أشعر أن على صدري عشرات الجبال.. وأشعر به فارغاً كمغارة لا نهاية لها.. كيف يخلق الإنسان عملاً أو أثراً.. والوحدة تلفه من كل جانب..؟ يجب أن تكون هنالك قوة تدفع الإنسان وتشجعه وتحضه على العمل.. من أجل من سأعمل؟ آه.. آه.. أين أنت أيها الحب..؟

* * *

في الثلاثين من عمره بدأ قلبه يخفق. في البدء لم يعرف السبب.. وأخيراً أدرك أنه يحِبُّ ويحَبُّ.. ومع كل ذلك لم يستطع أن يعطي أثره ذاك الذي يفكر فيه منذ سنين.. وصار يقول:

ـ الحب شيء جميل. من حيث الجمال هو جميل.. ولكن لا طعم له ولا ينتج دون زواج.. لو أتزوج.. تتبدل حياتي ويحكمها نظام رائع.. وأعمل كما أريد.. لكن الزواج ليس بالأمر السهل.. آه.. آه.. لو أتزوج.. أعمل على الدوام.. ولا أترك دقيقة واحدة تمر سدى.

* * *

تزوج في الثانية والثلاثين من عمره.. كان سعيداً.. غير أنه لم يعمل شيئاً.. ولم يكتب سطراً واحداً من العمل الذي فكر فيه.. يقول إن عنده أسباباً.. وكان محقاً في ذلك.. ويقول:

ـ متطلبات المعيشة والمنزل أرهقت كاهلي.. أعمل ليل نهار من أجل تأمين لقمة العيش.. ولم يبق عندي دقيقة فراغ واحدة كي أكتب.. ولكي يبدع الإنسان.. يجب أن يعطي كل وقته له.. يجب أن تكون جيوبه ممتلئة.. وهذا غير ممكن براتب صغير لا يسمن ولا يغني من جوع.

* * *

في السادسة والثلاثين من عمره.. ازداد دخله.. فقالوا لنصغ إليه ماذا يقول:

ـ غرفتان صغيرتان.. أولاد وزوجة وصراخ له أول وليس له آخر.. هل يستطيع الإنسان أن يبدع ويكتب وسط هذه الضجة والازدحام؟؟ آه.. آه.. لو تيسر لي بيت كبير.. أربع أو خمس غرف.. لكنت أعمل ليل نهار.

* * *

في الثامنة والثلاثين من عمره.. انتقل إلى بيت كبير.. كذلك لم يستطع التفرغ للكتابة بأي شكل من الأشكال.. إذا كان لا يستطيع الكتابة فهل يكون الذنب ذنبه..؟ تعالوا نسمع:

ـ كيف يعمل الإنسان في بيت يقع وسط المدينة؟ اكتب إن كنت رجلاً في جو امتزجت فيه أصوات الباعة والسيارات والملاهي.. كي أنهي عملي وأثري الإبداعي.. يجب أن تتوفر لي الأجواء المناسبة.. هدوء.. راحة.. هواء طلق. جو المدينة مليء بالأتربة والغبار.. وصخب وضجيج.. ناهيك عن دخان السيارات والمعامل.. العمل هنا مستحيل.. آه.. آه.. لو أنتقل إلى بيت هادئ.. آمن.. مريح.. لأعمل بشكل عجيب.. في أعماقي عطش للعمل المتواصل.. ودون توقف.

* * *

في الأربعين من عمره تحققت أمنيته وانتقل إلى بيت واسع جميل.. يخيم عليه الهدوء. ومع هذا.. لم يستطع العمل كما يريد.. فلم يعد البيت.. والراحة.. والهواء الطلق.. والهدوء.. هم السبب. لكن الذرائع عادت كسابقاتها فيقول:

ـ آه.. آه.. إذا لم يكن البيت مكسواً بالمفروشات الجميلة.. واللوحات الثمينة تعلو جدرانه.. طاولة طعام كبيرة في وسطه.. وتحف على الرفوف

وفي كل مكان.. ومقاعد هزازة.. وسجاجيد ناعمة جميلة.. كيف يعمل الإنسان دون هذه الأشياء؟ يجب أن أمتلك أجهزة للموسيقا الكلاسيكية.. عندها تعمل.. وتمتع ناظريك من جهة.. وتشنف أذنيك من جهة أخرى.. وتعمل دون توقف.. آه.. آه.. هل ستتحقق أحلامي ذات يوم.. ويكون لي ما أردت؟ .. يا ربي.. عندها سأعمل بشكل لم يعهده أحد من قبل.

* * *

في الثانية والأربعين من عمره.. تحققت أحلامه ونال ما تمناه ورغب به.. من أثاث ومفروشات.. وتحف وسجاجيد.. وصار بيته أشبه بالقصر.. لكن الحجج بقيت سبباً في عدم إبداعه.. فقال:

ـ ماذا يفعل الإنسان إذا لم يتمكن من الإبداع؟ آه.. آه.. لو تعرفون حالي.. لا أحد يعرف علة الآخر عن بعد.. إنه المال.. ضيق ذات اليد.. لم أعد أقوى على التحمل.. أنا لا أنكر.. زوجتي تسعدني.. وأولادي طيبون.. وبيتي واسع ومطل.. أمامه حدائق جميلة.. تبهر الناظرين.. وثمين جداً.. وأملك أمتعة ومفروشات قيمة.. ولدي الوقت الكافي والوافي. ولكن هذا الذباب.. نعم وجود هذه الذبابات ينغص علي عيشي.. ويقلق راحتي.. ما هذا الذي أعانيه من هذه الذبابات؟ آه.. آه.. لولا وجود هذا الذباب.. لعرفت كيف سأكتب.. إنه لا يتركني لحظة واحدة لأنهي أثري.. أضف إلى ذلك فأنا لا أستطيع النوم بسببها.. وفي الليل لا أستطيع العمل.. إن أغلقت النوافذ.. تشتد الحرارة.. لو وضعت درفات للنوافذ يتغير جمال البيت.. وإن قلت لي اعمل في الشتاء.. في الشتاء لا يوجد ذباب أليس كذلك..؟ يعني أن الذباب لا يعيش في الشتاء؟ آه.. آه.. لولا وجود هذه الذبابات ماذا كنت سأفعل؟ لا أدري..!

* * *

بما أنه ما زال في الثانية والأربعين من عمره.. فأملنا كبير أنه سيأتي يوم وسيلقى الجو الملائم له.. وسيبدع في عمله المرتجى.. دون أن يأخذ شهيقاً أو زفيراً..!! (دون أن يترك وقتاً حتى للتنفس)..!!

○ ○ ○

مباع

بعد خدمة دامت إثنين وثلاثين عاماً في الدولة.. وكما يقول والدي في (دائرة الناموس).. أحلت علي المعاش.. وأخذت مكافأة مقدارها ألفان وخمسمائة ليرة.. اشتريت منزلاً خشبياً في (جرَّاح باشا).. بعته بعد مرور عشر سنوات بمبلغ خمس وعشرين ألف ليرة.. وبدأت أبحث لنفسي عن عمل ثابت ومؤمن يدرُّ لي بضع ليرات في الشهر.. وبما أنني إنسان فاشل على الدوام.. ولا أستطيع التلاؤم مع أي عمل.. نمت على المبلغ الذي قبضته ثمناً لمنزلي. وإذا ما ضاع هذا المبلغ من يدي.. لا يبقى أمامي سوى الرجوع إلى دائرة.. كما يسميها والدي (دائرة النفوس).. والتي بقيت لي ميراثاً منه.. لا أريد الشيء الكثير.. فقط أربعمائة ليرة في الشهر.. (أبوسها) وأضعها على جبيني. قدمت إعلاناً لإحدى الصحف.. هذا نصه:

«أنا مستعد أن أدفع مبلغ عشرين ألف ليرة لأي إنسان.. يعطيني في الشهر أربعمائة ليرة.. لقاء عمل أمين وحلال».

وتحسباً لكل طارئ.. وضعت مبلغ خمسة آلاف ليرة للضرورات القصوى.. بعد يوم واحد من نشر الإعلان.. تلقيت خمس عشرة رسالة.. وفي اليوم الذي يليه تسع رسائل.. وبعده.. خمس رسائل. بعد مرور شتة أيام.. انخفض عدد الرسائل إلى واحدة.. وبعدها انقطعت الرسائل كلياً.

في الرسائل التي فتحتها عروض مشاريع جذابة جداً.. ولكنهم لم يذكروا اسم العمل بأي شكل من الأشكال في إحدى هذه الرسائل جاء ما يلي:

«سيدي المحترم:

مقابل دفعكم العشرين ألف ليرة أنا أعرض عليكم.. عرضاً مكفولاً ومضموناً.. أن أدفع لكم في الشهر ألف ليرة.. وليس أربعمائة ليرة على أن تضرب لي موعداً للقائك».

في البداية قابلت صاحب هذه الرسالة الذي قال:

ـ مالك لا يضيع أبداً.. لأن رأسمالنا.. لا يتعفن.. ولا تظهر فيه رائحة كريهة.. سأعطيك كل شهر مبلغ ألف ليرة نقداً وعداً مقابل العشرين ألف ليرة التي تعطيني إياها.

سألته:

ـ وما نوع العمل الذي تقوم به؟

قال:

ـ إنه عمل نظيف إلى أبعد الحدود.. سنستأجر بيوتاً للقاءات. الرأسمال مني.. والمطلوب منك أن تستأجر طابقاً من بناء وتفرشها فرشاً جميلاً وثميناً.. في محيط مناسب وجميل.. فقط.. أما مالك.. فيبقى كما هو.. ولا تؤاخذني إن كنت أمدح نفسي أمامك فأنا إنسان نظيف وشريف وخلوق.. ولا أتعامل بالحيل والمكر مطلقاً.. وإن كنت لا تثق بي.. تستطيع أن تقف على الباب وتمسك كل الحسابات بيدك.

قلت:

ـ أعطني بعض الوقت حتى أفكر بالموضوع.

أما كاتب الرسالة الأخرى فيقول:

ـ نتفق مع ثلاث نساء معروفات في المجتمع.. نعطي كل واحدة ألفين أو ثلاثة آلاف ليرة.. يذهبن بزيارة إلى بيروت وسوريا عدة مرات في السنة.

قلت:

ـ هل سنفتح الملف السياحي؟

ـ لا.. هذه عملية استيراد،، ليس إلا.. يجلبن من هناك (المايوهات البلاستيكية) وقمصان النوم النايلون.. وكيلوتات.. وهذه التجارة النظيفة.. ستدر عليك في الشهر ألفي ليرة.. وهي أفضل من بيوت اللقاء.. ثم إنه عمل تجاري صرف نظيف وشريف.

ـ وإذا النسوة ذهبن ولم يعدن؟ أو يرجعن؟

ـ أمعقول كلامك هذا؟ كلهن.. عندهن أزواج وأولاد وعائلات.

قلت:

ـ أعطني بعض الوقت لأفكر.

وجاء عرض أحدهم على النحو التالي:

ـ سنستأجر شقة في أحد الطوابق.. دون أن نضع أغراضاً أو مفروشات.. لا نريد سوى منظارين.. فقط.

ـ يعني سنعمل بتجارة المناظير؟

ـ لا.. لا.. للمراقبة فقط.

عندما اعتبرني كالمغفل سألني:

ـ هل جئت من القرية؟

ـ لا.. لا.. أنا استانبولي.. ولادة ونشأة.

ـ إذن.. ألا تعرف المراقبة؟

ـ سيراقب المشترون أحد البيوت المجاورة فيشاهدون امرأة ذات أخلاق وشرف.. تتعرى.. وتلعب الجمباز أو تستحم..

ـ طيب.. ومن أين نأتي بتلك المرأة؟

ـ نحن الذين سنتفق معها.. والمشترون يجهلون أننا نحن الذين نتعامل معها.. كل عشر دقائق مراقبة بعشر ليرات.

ـ ولماذا.. يراقبونها من بعيد..؟ فيذهبون إليها. ألا تكون العملية أضمن لنا؟

ـ والله أنك وجدتها..! الرقابة من بعيد شيء آخر.. هذه الآن موضة العصر. وبما أنه ليس لأحد الجرأة الكافية على التقرب منها خجلاً وحياءً.. تكون عملية المراقبة عن بعد أكثر ذوقاً.. تستطيع أن تعتبرها كالتهريب.. يعني كل ممنوع مرغوب.

وطلبت منه أيضاً بعض الوقت للتفكير.

أحدهم اقترح تصوير فيلم خلاعي.. وطلب آخر عرض هذه الأفلام في منزل.. وبعضهم بيع الصور العارية.. وكلهم يعطون الثقة ويحلفون بشرفهم وكرامتهم أن ربحي سيكون بين الألف والألفي ليرة في الشهر الواحد.

والحقيقة.. لم يجذبني أي من هذه العروض كالذي قدمه لي (ساتلمش جاويش) (جاويش المباع: لقب.. المترجم).. لأنني اقتنعت به فوراً. وعين العقل ما فعلت.. فأنا الآن من كبار أغنياء هذه المدينة.. لقد أصبحت أملك شركة بالشراكة مع (ساتلمش).

عندما رآني ساتلمش جاويش أول مرة.. لم يقل سأدفع لك ألف أو ألفي ليرة.. بل قال:

ـ شوف يا أخي.. أنت تملك المال.. وأنا أملك العقل.. لنوظف ما نملكه في هذا العمل.. والربح مناصفة بيني وبينك. هل أنت راضي؟

ـ أنا راضي.. ولكن ماذا سنعمل؟

بدأ ساتلمش جاويش يقص لي كيف تعلم هذه العملية المربحة:

ـ تعلمت السواقة في سلاح المدرعات.. أثناء خدمة العلم. عندما حصلت على شهادة السوق.. بدأ التراب يدفعني عنه.. قلت في نفسي سأشتري شاحنة. بعت حقلي وبيتي في القرية.. وجئت إلى استانبول لأحقق رغبتي.. درت مكاتب السيارات كلها.. فلم أجد شيئاً.. لا شاحنة ولا سيارة تاكسي.. هنالك مستودعات ومخازن كثيرة عرضت في كل منها سيارة واحدة وضع عليها لوحة (مباعة).. وما من شاحنة غيرها.. كل المكاتب والمخازن على هذا الحال.. كنت أسند أنفي على الزجاج وأراقب السيارات والشاحنات المباعة.. واستمر معي الحال هكذا مدة طويلة.. وإذا بالمال الذي في جيبي.. صار هباء منثوراً.

ـ ولك أخي ساتلمش حدثني عن العمل الذي سنقوم به.

ـ انتظرني قليلاً ها أنا أقص عليك ما جرى.. وإذا بفضول كبير يدفعني.. قلت في نفسي.. إذا كانت كل هذه الشاحنات والسيارات مباعة.. لماذا لا يأخذها أصحابها الذين اشتروها.

مثلاً لو اشتريت أنا شاحنة أو سيارة.. هل أتركها (مَسطَرة) للعرض في واجهة صاحب المكتب؟ كل هذه الآليات والشاحنات والتي تبقى معروضة شهوراً طويلة.. واللوحة معلقة عليها (مباعة).

تختفي فجأة ويضعون بدلاً منها سيارة أخرى.. ويضعون عليها نفس لوحة (مباعة).. قلت في نفسي: هذه العملية فيها (إنَّة) (لعبة).. وتخفي وراءها سراً. زاد فضولي كلياً. وأحببت أن أعرف حقيقة الأمر ولكن لم يبق معي ليرة واحدة. وبعض هياط ومياط توصلت إلى حقيقة الأمر..

لم أفهم العرض الذي قدمه لي ساتلمش جاويش.. ولكن الرجل أعجبني كثيراً.. ولهذا وافقت على عرضه.

على زاوية الحي استأجرنا مخزناً كبيراً بأربعة آلاف ليرة شهرياً.. وأعطينا المالك سلفة ستة أشهر وبالقروش التي بقيت معنا.. عمد ساتلمش

جاويش إلى شراء لوحة (مباعة).. المخزن فارغ من كل شيء.. سوى من (لوحة المباعة).. قلت له:

ـ ماذا سنفعل الآن يا ساتلمش جاويش؟

مرت عدة شهور ونحن ننظر إلى بعضنا في هذا المخزن الفارغ.. ولم يبق معنا مال.. ولكن (ساتلمش جاويش) كان واثقاً من الربح.

والحقيقة أن فضولي كان يزداد يوماً بعد يوم.. كيف سنربح من هذا المخزن الفارغ.. في صبيحة أحد الأيام.. دخلت امرأة وفي يدها علبة كبيرة وقالت:

ـ معي فرو..!

ـ كم تريدين؟

ـ ثلاثة آلاف.

ـ عنوانك؟

ـ سوهادا.. اكتان.. السيد عثمان.. بناية النور.. طابق ثاني.

كتب ساتلمش عنوانها..وعندما همت السيدة بالخروج قلت:

ـ ولك عيني.. نشتري الفرو دون أن نراه.

ـ لم نشتر.. ولم نبعه.. بعد قليل نعرف كل شيء.

فتح العلبة.. وأخرج الفرو.. وعلقه على الواجهة.. ووضع عليه اللوحة (مباعة).

مع اقتراب المساء.. دخلت امرأتان جميلتان إلى المحل:

ـ نريد الفرو الموجود على الواجهة.

ـ أين يا سيدتي؟ مع الأسف لا يوجد.. كان عندنا واحد.. بعناه.

ـ آ آ آ.. حرام..

ـ على علاته (بالحرف).. المشتري يريد أن يبيعه.

ـ بكم ياترى؟

ـ صاحبته اشترته بثلاثة آلاف ليرة.. ومعها فاتورة.. الآن تطلب أربعة آلاف.. اذهبي وتحدثي معها.

أعطاها ساتلمش جاويش عنوان السيدة وبعد ساعتين عادت السيدتان مع صاحبة الفرو التي بادرت بالقول:

ـ بعته للسيدتين.

قبض ساتلمش الأربعة آلاف ليرة.. ولف الفرو وأعطاهن إياه والتفت إلى السيدة فأعطاها ثلاثة آلاف وخمسمائة.. وقال بعد ذهابها:

ـ انظر يا أخي.. ها قد ربحنا خمسمائة ليرة.. خذ مئتين وخمسين ليرة والنصف الباقي لي.. لقد فُتح باب العمل.. إذا تعودت أقدامهم على المحل يأتون على الدوام.

قلت له:

ـ ولك ساتلمش.. أخشى أن يلحقنا ضرر لأننا لا نعطي فواتير ولم نفتح دفاتر نظامية.

ـ وما المناسبة حتى نعطي الفواتير.. نحن لا نبيع شيئاً ولا نشتري.. هم الذين باعوا واشتروا.. لا دخل لنا بالأمر.

في اليوم التالي.. أحضروا براداً جديداً وماكينة خياطة.. علقنا عليهما لوحة (مباعة).. بعد أسبوع بيع الاثنان.. ربحنا ألفي ليرة.

المخزن كبير والحمد لله.. صاروا يأتون بالسيارات.. والشاحنات.. ورأسمالنا كله لوحة واحدة كتب عليها (مباعة).. وصرنا عندما نربح في اليوم الواحد ألفي ليرة. كان ساتلمش يقول:

ـ اليوم يوجد كساد في السوق.

ألف شكر.. وألف بركة.. عندما أدخل المخزن وعندما أخرج منه.. أُقبل لوحة (مباعة) وأضعها على رأسي.

في بيتنا لوحات كثيرة.. مثل (يا حافظ).. (يا صبور).. (الرزاق هو الله).. رفعتها كلها ووضعت مكان كل منها لوحة (مباعة) مزينة بإطار ذهبي.

ذات يوم قلت لشريكي (ساتلمش):

ـ الحمد لله ربحنا الشيء الكثير.. ما رأيك لو نتزوج..؟

قال:

ـ إياك.. ثم إياك هاه.

سألته:

ـ ولماذا؟

ـ عيون البشر مسلطة على البضائع المباعة.. عند الغير.. تبقى الفتاة تنتظر حتى يوم القيامة.. ولا أحد ينظر إلى وجهها.. وعندما نتزوج سيسرعون إلى شراء زوجاتنا.. الناس هكذا يا أخي..!!!

○ ○ ○

الوحدة (البقاء وحيداً)

هناك أناس لا يستطيعون العيش.. دون ضرب وقتل.. قصتي لم تكن هكذا. لأقصها عليكم حتى تعطوني الحق فيما فعلته:

خدعني الطقس الحار الصيفي وسط الشتاء.. الأشجار كلها خدعتني عندما أزهرت.. نعم خُدعت.. هل هذا كثير؟.. لاحظت أن الطقس جميل جداً.. وكأنه يوم من أيام الصيف.. شعرت بالسأم المتزايد وأنا جالس طوال أيام الشتاء.. وجهاً لوجه مع زوجتي. أحب منطقة (هونكارسويو).. ركبت الحافلة واتجهت بي صوب تلك المنطقة. ولدى وصولي إلى (صاري ير) نزلت من الحافلة وبدأت أتسلق الهضبة مستنداً إلى عكازتي أو (بستوني).

ما من أحد في كازينو (هونكار سويو).. الهواء جميل وبما أن الفصل شتاء.. كان خالياً من الناس.. رأيت عدداً من الكراسي هنا وهناك. جلست على أحدها.. أتطلع إلى قمم الجبال المزروعة أمامي.. وأنصت إلى موسيقا السكون.. وفيما كنت مخموراً من جمال هذا المكان.. تراءى لي شخص من بعيد. هذا المخلوق الذي يشبه كل شيء غير البشر.

شعرت بخوف تسرب إلى أعماقي.. ربما سيسرقني.. أن يسرق مني أشياء.. ليس بالمهم.. فجسمي ليس إلا عبارة عن جلد وعظم.. لو ضربني بحجر على رأسي.. وألقى بي إلى النهر.. (لا من شاف ولا من دري).. يتركني طعاماً للوحوش والطيور الجارحة. عندما خرجت من البيت لم أخبر أحداً إنني ذاهب لمكان كذا.. لو قلت إنني ذاهب إلى منطقة (هونكار سويو) لقالوا إن الرجل قد جن.. ولن يتركوني أذهب.. جاء

الرجل وجلس على كرسي.. لا يبعد عني سوى أربع خطوات.. وصار يفتل شاربه.. يرمقني بنظراته من جهة.. ويبتسم لي من جهة أخرى. قلت: خير لي أن أترك هذا المكان وأهرب.. ولكن من أين لي بالقوة لكي أهرب؟.. أبهذين الساقين اللتين كبلهما الروماتيزم وجمدهما الألم..؟ حتى وإن هربت.. فهذا الرجل سيتمكن من القبض على عنقي متى شاء.

صرت كإنسان رأى حيواناً مرعباً في حلمه يريد الهرب فلا يستطيع.. يحاول الصراخ فيختنق صوته.. وهذا ما حدث لي.. ساقاي مكبلتان.. أريد الصراخ وطلب النجدة.. فلا صوت ولا قوة.. حتى ولو صرخت.. وفي ذلك القفر الموحش.. الشياطين نفسها لا تقوى على نجدتي.. يريد الإنسان في مثل هذه المواقف.. وخاصة في الأحلام.. أن يحرك يديه كما يخفق جناحا الطير ليتخلص من الموقف الذي هو فيه فلا يستطيع.. هذا الوضع كان أصعب من الحلم.. لا هروب ولا طيران. الرجل جالس مقابلي يمسد شاربه دون توقف.. ينظر إلي بعينين محمرتين كالجمر وقد جحظتا من مكانهما.. التفت ذات اليمين وذات الشمال.. فلا أرى غير عينيه المسلطتين باتجاهي مثل الأنوار الكاشفة.. «لا شك أن هذا الرجل مجنون.. وسيعمل على ذبحي..» قلت ذلك في نفسي فقرأت آية الكرسي وأسماء الله الحسنى ودعوت ربي كما أخرجني من أربعة حروب سالماً أن يعطيني القوة لساقي كي أهرب من هذا الشخص أيضاً.

حاولت الوقوف بعض الشيء.. إلا أن ركبتي جمدتا.. هذا غير معقول..! ما الذي حل بي؟ ماذا أصابني؟ قلت: «لأبتسم له على الأقل.. ربما أدخل إلى قلبه بعض الود».. ابتسمت ابتسامة صغيرة.

- سلام عليكم.

أووهو.. لما خرجت الكلمات من فم الرجل أحسست بالفرحة والراحة نوعاً ما.

ـ عليكم سلام.

ـ الطقس جميل جداً.

ـ نعم ما شاء الله..

ـ ألا ترى هذا النهر..؟

ـ نعم.

ـ هناك خنقوا (بلما) العام الماضي وفي مثل هذا الموقف تحت الصخرة الكبيرة تلك.

جمد فمي وعقل لساني وجف لعابي من شدة الخوف.. وصار يتحدث دون توقف:

ـ ألا تعلم أن طفلاً قتل وعمره ثلاث سنوات.. والقاتل ظل مجهولاً حتى الآن.. ووجدوا جثته تحت هذه الشجرة..؟!

على الأغلب كنت مقابل وحش ضارٍ (صاري ير) وجهاً لوجه. جمعت كل قواي وتحركت عن الكرسي وقلت:

ـ بعد إذنك..

أمسكني الرجل من ذراعي بكلتي يديه وقال:

ـ لا.. والله لن أتركك.

قلت: «إن تسلقت هذه الهضاب سألقى حتفي حتماً».. سلمت نفسي لإرادة القدر.

ـ هيا لنلعب بطاولة النرد.

ـ والله لا أعرف كيف يلعبون بالطاولة يا أخي.

ـ بقدر ما تعرف.

ذهب إلى البراكة.. وأحضر طاولة وبدأ برمي النرد.. حركت الحجر

نقلة أو نقلتين.. وإذا بصفعة تنزل على وجهي.. شعرت معها كأن كوكبة من الصواعق خرجت من عيوني. وصرخ بكل قوته:

ـ إذا كنت تريد اللعب.. فالعب بشرف.

من الواضح أن الرجل يبحث عن سبب ليخنقني.. تابعت اللعب دون أن أرفع صوتي.. وإذا بصفعة أخرى.. قال:

ـ جاء (إيكي بير) وأنت تلعب (الدوبرا).

سمرت عيني على النردين كي لا أقع في خطأ.. وعملت جاهداً كي أُغلب. في الصفعة الثالثة تدحرجت على الأرض.

ـ إلعب شيش.

لعبت الشيش.. وإذا بصفعة أخرى أطاحت بوجهي جانباً..

ـ ستلعب (جهار) ليس (شيش).

كيفما لعبت.. مع الجهات الستة للنرد.. كان الرجل ينهال بصفعاته على وجهي. أخرجت المحفظة من جيبي. وقلت:

ـ انظر يا أخي.. أملك خمس عشرة ليرة فقط.. إن كنت تبغي قتلي فاقتلني ولكن لا تؤلمني.. ستخنقني.. أم تعلق مشنقتي.. اعمل ما بدا لك.

اهتز الرجل فجأة.. وقال:

ـ وما المناسبة؟

ـ أنت تعرف المناسبة.. أعرف إنك ستقتلني حتماً.. على الأقل توقف عن ضربي.

ـ لا والله.. في حياتي كلها لم أقتل ولم أذبح حتى دجاجة.

ـ إذن ماذا تفعل هنا.. على رأس هذا الجبل؟

ـ أنا حارس هذا المقهى.. طوال فصل الشتاء.. وأنا وحيد هنا.. أتحسر

وأتوق لرؤية مجرد وجه إنسان.

يبدو أن الشخص قد استوحش من الوحدة هنا. قال لي:

ـ عندما رأيتك قلت في نفسي.. لنتحابب بعض الشيء.. ونلعب الطاولة.

ـ ولك أخي.. لنلعب ونتحابب.. ولكن لا تضربني مع كل رمية للنرد.. صفعاتك أطارت الشرر من عيوني.

ـ ها.. إذن تأثرت من هذا.. والله أنا أفعل هذا من شدة فرحي بك وحبي لك.. لغضبي من وحدتي.. أنا سأنفجر هنا.. عندما رأيتك فرحت بك كثيراً.

وإذا بصفعة أخرى تنزل على رقبتي.. وقال:

ـ هيا.. هيا.. العب ولا يهمك.

كان شبح الموت قد انزاح عني.. شعرت أن أمي ولدتني من جديد. عدنا إلى الطاولة.. وإذا بصفعة أخرى تنزل على وجهي أطارت شرر النار من عيوني.. قلت:

ـ آ آ.. شوف.. خل المزح جانباً.. إن عدت وضربتني لا تلم إلا نفسك..يكفيك ما فعلت.

قال:

ـ العب جيداً ولا تغشني..

وإذا بصفعة أخرى على خدي الأيسر..

كان خوفي من الرجل قد انزاح كلياً عني.. صرخت في وجهه:

ـ يكفي.. أصبحنا أكثر مودة..

فأنزلت الطاولة على رأسه. تدحرج على الأرض دون حراك.

وفيما كنت أغادر المكان.. سمعته يقول وهو ملقى على الأرض:

- إن كنت تحب الله تعال غداً.. سأنتظرك.. أنا هنا.. والله.. الوحدة تكاد تقتلني.

○ ○ ○

الروايات والقصص المترجمة

كتبت رواية.. عملت فيها ثلاثة شهور دون توقف.. ليلاً نهاراً.. كل واحد في هذا العالم يخدع الآخر.. أما الكاتب فيخدع نفسه على الدوام.

حتى لو خجلت من قول ذلك للآخرين.. أستطيع على الأقل أن أقولها لنفسي.

صارت الرواية جاهزة.. أخذتها إلى إحدى الصحف.. قالوا:

- لا ننشر رواية مؤلفة..

- اقرؤوها على الأقل..

- ليس ضرورياً.. فالشعب لا يحب قراءة الروايات المحلية.

أخذت الرواية إلى دار نشر.. وقبل أن أكمل:

- عندي رواية...

قال:

- نحن لا ننشر سوى الروايات المترجمة.

أخذتها إلى دار نشر أخرى.. أجابوني على الفور:

- إن كان عندك شيء مترجم.. أحضره.. لأن الروايات المحلية لا تباع.

أينما ذهبت.. كأن كل واحد منهم قد بصق في فم الآخر.. والرواية التي تعبت في صياغتها ثلاثة شهور دون توقف.. بقيت في يدي.. كطفل رضيع وضع على باب الجامع.. لأنه ابن حرام. عندها تذكرت أن مجموعة من الكتاب يترجمون عن الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية.. بعد الترجمة يوقعون تحتها على أنها من مؤلفاتهم الشخصية..

ويعطونها للمجلات وينشرونها.. فلماذا لا أفعل كما يفعلون؟

جلست.. وغيرت كل الأسماء التركية بأسماء أمريكية.. وحصلت على خريطة نيويورك.. وغيرت أسماء الأماكن.. صارت الرواية أمريكية بحتة.. والآن جاء دور اسم الكاتب الأمريكي.. اخترعت من خيالي اسماً أمريكياً (مارك أولبراين).

أخذت الرواية إلى الجريدة التي صدتني قائلة نحن لا ننشر سوى روايات مترجمة. وقلت لهم:

ـ أحضرت لكم رواية مترجمة للكاتب الأمريكي (مارك أولبراين).

ـ جميل جداً.. ومن هذا.. مارك أولبراين..؟

ـ آ آ.. ألا تعرفونه.؟؟!! (مارك أولبراين) المشهور.. كل أعماله ترجمت إلى جميع لغات العالم.

لم يجدوا ضرورة حتى لقراءتها.. دفعوا لي أتعابي وقالوا لي:

ـ اكتب نبذة عن الكاتب والكتاب.

أخذت القلم.. وكتبت:

«العمل الأخير لمارك أولبراين: Struggle for Life.

هذا العمل الذي هز أمريكا من أساسها.. بيع منه خلال شهر واحد أربعة ملايين نسخة.. هذه الرواية التي ترجمت لجميع لغات العالم.. كان لزاماً علينا أن نترجمها تحت اسم (مشاكسة الحياة)

من هو مارك أولبراين؟

نسجت لمارك أولبراين صاحبنا هذا قصة حياة رائعة:

«هو أصغر ولد لعائلة قوامها ثمانية عشر طفلاً.. يعمل والده مزارعاً في فيلادلفيا.. أراد أن يجعل من ولده هذا كاهناً.. ونظراً لذكائه الخارق وهو في الرابعة عشرة من عمره.. وخز (بروفيسوره) أستاذه الكبير بإبرة وضعها

له على مقعده.. فطردوه من المدرسة الإكليريكية. وحياته لا تختلف عن حياة الكتاب الأمريكيين المشهورين.. عمل صياداً للسمك أو التهريب.. أحب ينابيع المياه فكان يبحث عن ينابيع الأنهار ويقضي قربها ساعات بل أيام.. في البدء كانت كتاباته عادية.. إلا أنه عندما بلغ الأربعين من عمره أرسل قصة بعنوان (Let us Kiss) إلى إحدى الجرائد.. كان أسلوبه ركيكاً فظاً.. تشمئز منه عند قراءته».

المهم.. كتبت سيرة حياته بشكل منمق وطويل.. لتقبله دور النشر.. وفعلاً بدأت الطلبات تنهال عليَّ:

ـ آمان.. بالله عليك.. ترجم لنا عملاً لمارك أولبراين هذا.

ترجمت لهذا الكاتب الخيالي مارك أولبراين ثماني عشرة رواية.. وسأظل أترجم إلى ما شاء الله. لم أترك الأمر هكذا فقط.. بل ترجمت ست روايات أو كتب للمخبر السري المشهور (جاك لـمَّر) في الأيام الأخيرة. كانت الأمور تسير على ما يرام.. حتى بدأت بالترجمة عن اللغة الهندية والصينية.

أعزائي القراء.. إن نسبة تسعة وتسعين بالمئة من القصص والروايات المنشورة في صحفنا المحلية.. كلها.. كتابات تركية.. وُضع عليها: مترجمة عن اللغة الفلانية.

إن استمر الوضع على ما هو عليه.. سيأتي يوم يقبل فيه مؤرخو الأدب الأمريكي على قراءة الأدب التركي.. شاؤوا أم أبوا.. وكلي أمل أن أحتل مكاني في الأدب الأمريكي.. تحت اسم مارك أولبراين في المستقبل القريب بإذن الله!!

○ ○ ○

طفل

دخلت المخفر مذعورة وهي تصرخ:

ـ آه يا ويلي.. لقد خطفوا ولدي.. ضنايا.. حبيبي.

كان شعرها أصفر مائلاً إلى الرمادي.. خصلتان منه صبغتا باللون الأبيض.. ومن شدة البكاء.. تدلت أهداب عينيها حتى امتزجت بحمرة خديها.. أما شيال قميصها الداخلي فقد وصل تحت ذراعها.

قال لها المفتش يسألها:

ـ من الذي خطفه؟

ـ زوجي يا سيدي المفتش.. زوجي ذاك الرجل الحقير.

لشدة حزنها وبكائها امتزجت الأصبغة والعرق والدموع في وجهها.. وكانت تتحدث بصعوبة وهي تقول بأنها انفصلت عن زوجها منذ خمس سنوات.. ويعيشان متباعدين.. وأنهما يريدان الطلاق.. وأوراقهما في المحكمة.. وأن زوجها قد خطف ابنها (متين) منذ خمس دقائق.

ـ خلصوا ولدي من يد ذلك الرجل يا سيدي المفتش.. أريد أن أربيه وأجعل منه رجلاً ذا كرامة وشرف.. فلو بقي عنده وتحت إشرافه سينشأ على شاكلته.

كانت امرأة متحدثة.. ومن الواضح أنها ملمة بالقراءة والكتابة بعض الشيء. هدَّأ المفتش من روعها وأجلسها على كرسي.. وأخذ عنوان زوجها.

بعد قليل.. حضر الرجل والصبي الصغير برفقة اثنين من الشرطة..

هرعت المرأة إلى ولدها حينما رأته.. ولكن الرجل كان أسرع منها.. فالتقط ذراعه الأخرى وصار كل منهما ممسكاً بذراع الصبي ويشده صوبه.. وضاع صراخ الطفل الخائف بين صيحات والديه.. والضوضاء التي حدثت في المخفر.. أما عناصر الشرطة فلم يستطيعوا تخليص الطفل من يدي أبيه وأمه. ما شاء الله كانت يد الطفل قوية بالرغم من أنها خلعت عندما انتزعها من أبيه.. حملت المرأة الولد.. وخرجت من المخفر بسرعة البرق. أما الشرطة فقد أمسكوا بالرجل الذي حاول اللحاق بها.. كان الرجل على درجة كبيرة من الوعي والفهم للأمور.. مما يدل على أنه كان مثقفاً. قال:

- أنتم لا تعرفون هذه المرأة يا سيدي المفتش.. أنا أريد أن أجعل من ابني هذا رجلاً نافعاً في المجتمع.. وهذه المرأة تخربه.

قال المفتش:

- الطفل في الخامسة من عمره.. والقانون يعطيه لأمه.

- مستحيل.. المحكمة تعطيني الطفل.. لأن أمه..

أوضح الرجل كيف أنه قبض على زوجته مع أحدهم.. وأن بقاء الطفل معها ضرب من المستحيل.

بعد خمسة عشر يوماً من هذه الحادثة.. اشتبك الزوجان مرة أخرى أمام أحد المشافي.. كان متين الذي خلعت يده.. قد استعاد عافيته ثانية.. وفيما كانت أمه تخرجه من المشفى.. فوجئت الأم بالوالد يمسك بالولد يريد أن يخلصه منها.. فانقضت عليه كالباشق تريد أن تخلصه منه.. وبما أن إحدى ذراعيه كانت مجبرة.. أمسكته من إحدى ساقيه.. والأب يسحبه من يده الأخرى.. هذه المرة خلع كتف الولد من أساسه.. ولكن النصر كان للأب الذي حمل الولد بين ذراعيه واختفى بين الأزقة الضيقة.. لقد خلص ابنه الذي كان مخلوع اليدين.. أما الرجل فكان يقول:

- ليظل عاجزاً مشلولاً طوال عمره.. خير له من أن يبقى مع أمه وينشأ دون أخلاق.

بعد مرور شهر على تلك الحادثة.. وبعد مغيب شمس أحد الأيام بنصف ساعة.. وقفت سيارة أمام الزقاق.. ترجلت منها امرأة.. اقتربت من الأطفال الذين كانوا يلعبون في نهاية الشارع.. وكان (متين) بينهم وهجمت عليه وأمسكته من خصره.. فلحق بهما أبوه.. وصار الطفل يبكي ويصرخ بحرقة كبيرة.. حتى أن المارة أشفقوا عليه وقالوا:

- اتركي الولد يا امرأة.. أوشك أن يموت..

كانت المرأة التي تجر الولد من إحدى ساقيه تقول:

- ليمت.. أفضل من أن يظل مع أبيه الحقير وينشأ حقيراً مثله.

بقي متين حياً ولم يمت من المشادات بين الطرفين.. ولكن ساقيه شدتا وابتعدتا عن بعضهما البعض حتى أن بنطاله قد تمزق.. ولكن مهما حصل.. فقد استطاعت المرأة أن تفر مع ابنها بالسيارة. كان الولد قد جرح جرحاً بليغاً.. وبقي نائماً في المشفى شهراً كاملاً.. وعندما خرج مستنداً إلى عكازه ضمته أمه إلى صدرها وقالت:

- آه يا ضنايا والله سأجعل من شعري مكنسة وأعتني بك.

بعد أول جلسة في المحكمة.. جرت مطاردة بين المرأة وزوجها في ممشى المحكمة.. المرأة تجري وراء زوجها الذي خطف الولد لدى خروجه من المحكمة.. وفي أول السلم تعلقت بسترته.. وبقفزة واحدة أمسكت بالطفل.. غير أنها لم تحافظ على توازنها فتدحرجت هي وابنها على السلالم.. فجرح الطفل في رأسه وصارت الدماء تسيل وأغمي عليه. قالت المرأة وهي تحمل طفلها وتسرع نحو الشارع:

- يا ضنايا.. يا حبيبي.

في هذه الأثناء لحق بها زوجها.. وصار أحدهما يسحب الطفل من رأسه والآخر من قدميه.. أما الطفل المغمى عليه.. فلم يشعر بالألم الذي أصابه جراء ذلك.

- لن أترك لك ولدي.

- ها ها.. تريد أن أتركه لك حتى يصير مثلك في النهاية؟!

- قضيت عليه من الجوع والعطش.. سأعتني به وسأجعله كزهرة حلوة متفتحة.

أدركتهما الشرطة وتدخلت بينهما.. أما (متين) فقد بقي مع أبيه.

وبعد علاج طويل.. عاد الطفل إلى حياته الطبيعية.. ففي المعركة الأولى كانت ذراعه اليمنى قد خلعت.. أما في الثانية فقد خلعت ذراعه اليسرى.. ثم كسرت ساقه ولفت بالجبس شهوراً طويلة.. لهذا السبب كانت إحدى ساقيه أقصر من الثانية بثلاثة سنتيمترات.. يعرج.. أما المعركة الأخيرة فكانت أكثر ألماً وجرحاً ونزفاً.. كانت إحدى عينيه قد فقئت وأصيب بكسر في جمجمته جراء سقوطه وتقلبه على الدرج.. وأصبح نتيجة رعونة الأبوين معوقاً وعاجزاً.

المحكمة التي قررت طلاقهما أعطت الولد لأمه.. لم يقبل الأب بهذا القرار.. استأنف إلى محكمة أعلى.. وفي الوقت نفسه خطف الولد ذات ليلة من بيت أمه.. لم تكن حالة اختطاف كسابقاتها لأن الأم لحقت بالولد وأبيه.. بدأا بالمشادة ومتين الذي لا يعرفهما.. ينتقل من واحد إلى آخر. حسب القوة التي يبذلها كلا الطرفين.

صرخت المرأة بالحارس الذي وصل لتوه وبالبوليس:

- خلصوا ابني من يد هذا الوحش.. سأجعل منه رجلاً صالحاً.

ومتين يبكي.. قال والده:

- هذه العاهرة لا تدعني أربي ولدي كما أريد.. كي ينشأ محباً لوطنه ولمجتمعه.

كان الأب يصرخ هكذا.. وقد أمسك بالولد من عنقه.. يحاول تخليصه من يد زوجته القديمة.

هذه المرة بقي (متين) مع أمه.. بعد أن كسر عظم من عظام صدره وثقبت إحدى أذنيه. ولكن فرح المرأة لم يدم طويلاً.. كانت محكمة التمييز بقرارها قد أعطت الولد لأبيه.. لأنه قدم دلائل تثبت سوء أخلاق زوجته.. وأخذ ابنه بقوة المحكمة.. إن قلنا أخذه.. وهذا أيضاً لم يحدث بسهولة.. لأن الأم أمسكت بذراعي ابنها العاجزتين المكسورتين وأسندت قدمها إلى حافة الباب.. تشده وتقول صارخة:

- لن أتركه لكم.. هذا الرجل الحقير سيفسد ولدي.

وكذلك الرجل كان يصيح بأعلى صوته:

- اتركي الولد ولك (شرموطة).. اتركيه كي أربيه وأخلق منه رجلاً.

لولا تدخل البوليس ما استطاع الرجل أخذ ولده.

* * *

في أحد الأيام انتهت مغامرة متين.. لأن الوالدين لم يعودا يتشاجران.. ولم يبق رأسه في يد أحدهما والجسد في يد الآخر.. ولم ينقطع كحبل بئر من منتصفه.. ولا (جبسة) كبطيخة من منتصفها.. هذه المشادة انتهت بالصمت والهدوء.. لأن الولد مات.

تزوج والده مرة أخرى كي ينجب ابناً صالحاً لوطنه..

وأمه كانت حبلى بولد.. كي تربيه تربية صالحة.

ومن المؤكد أن أيهما لن يستطيع تربية ولده تربية صالحة..

○ ○ ○

من رجولته أو شجاعته

ضمتهم غرفة واحدة في (فندق البانيو) في حي (غلطة).. الغرفة في الطابق الأخير.. وأجرتها (تكليكة واحدة). ساعة واحدة مضت على تعرفهما إلى (ياموك إحسان) الملقب (بالتوب خانلي).. وبما أنه لا يملك هوية شخصية.. لا أحد يعرف حقيقة انتمائه إلى (توب خانة) أو غيرها. خلال ساعة أصبحوا معه مثل السمن على العسل.. وإلى أرصفة (توب خانة).. خرجوا من الغرفة كي يشربوا.. ويملؤوا رؤوسهم بعض الشيء.. فالتقوا بـ (ريزال باستيل حسين).

- مرحبا ياموك.

- مرحبا آبه.

- إلى أين؟

- خرجنا مع الأصدقاء.. كما ترى.

والتفت صوب (ريزال باستيل حسين) الذي لا يعرفه أبداً.

- خرجنا لكي نشرب ونتسلى.. ولكن.. أين..؟

خلال دقيقة كانت الألفة قد لفتهم.. وساروا معاً.

كانت الكتابات والأشعار الحرة.. والتواقيع وذكريات ياموك إحسان تملأ جدران مديرية الأمن.. والباب الرئيسي للسلطان أحمد وجدران سجن (توب تاستي) وأشعاره الموجودة والموقعة.. على جدران المراحيض العامة في استانبول.. وذكرياته اليومية.. وانتقاداته التي تزينها.. بعض الأبيات من شعر الغزل والحب.

وريزال حسين.. الذي يلقب بالباستيل بسبب أنفه الأفطس المسطح وجراح السكاكين والخناجر والبلطات.. والأسياخ التي تملأ جسده. كان يسير بخيلاء على أنه رجل (قبضاي) من الدرجة الأولى.. وقد أمال إحدى كتفيه نحو الأسفل..

أما الثالث القادم إلى استانبول حديثاً.. فقد انسجم على الفور مع الاثنين الآخرين.. وجهد في أن تكون خطواته متلائمه مع خطوات باستيل حسين المائلة.. فأمال كتفه مثل ياموك إحسان نحو الأسفل.

ضرب باستيل حسين الباب الزجاجي الذي كتب عليه (مطعم الوردة الصفراء مطعم فيه شراب) برجله كما يضرب كرة.. ودخل.. أما ياموك إحسان فرفع الباب بكتفه أيضاً ودخل.. وكذلك فعل الثالث مثلهما ودخل المطعم من خلفهما.

ضرب ياموك الطاولة بقبضته وقال صارخاً:

ـ تعال إلي هنا ولك كوجو.. عندما نأتي إلى هنا.. تسرع إلى طاولتنا.. فوراً.. فهمت..؟ هيا أحضر لنا زجاجة جديدة من العرق.. والباقي أنت تعرفه.

تضاربت الأقداح المرفوعة على الشرف.. مع مجيء الزجاجة الثانية كثرت عبارات المحبة.. وصارت الأحاديث تدور حول الرجولة والشجاعة.

بدأ ياموك إحسان بقص كيفية ضربه للمدعو (تاختا كللي جمال).. وحين بدأ بالرواية.. قاطعه باستيل حسين قائلاً:

ـ هذا الكلام غير صحيح.. كنتم أربعة عندما اعتديتم على الشاب ولم تكن وحدك.

ـ مين.. نحن..؟ نحن رجل..

أما باستيل حسين صاحب الملف ضخم وسوابق امرأة حامل في شهرها التاسع.. بدأ يروي قصته:

في إحدى المرات عمد صديقان إلى صنع تمثال من الحديد للسيدة مريم.. وآخر لسيدنا عيسى عليه السلام من النحاس.. وصليبين غطساهما في ماء الذهب.. ثم طمرا ذلك كله تحت التراب. وبعد فترة أخرجا الصليبين والهيكلين.. وباعاهم لأحد القرويين الأغنياء.. على أنها آثار روحانية قديمة.. بمبلغ عشرين ألف بابل (ليرة).

بعد فترة ألقي القبض على باستيل حسين.. وظلوا يحققون معه طوال أسبوع كامل.. فضربوه بالهراوات الغليظة.. ولكنه لم يذكر اسم شريكه في العملية.. هذه هي الرجولة الحقيقية.

فهبياموك إحسان قائلاً:

ـ ألا تقصد رجب الغلطلي؟ يقولون إنك أنت الذي أخبرت عنه.. وتم القبض عليه.

ـ من..؟ أنا؟ ولك.. أنا أموت فداء الرجل الشجاع.. والله أموت من أجله.. رجولة..

لم يرض الآخر أن يختلف عنهما فقال:

خمسة أصدقاء حميمين.. اشتروا امرأة.. أخذوها إلى الجبل وجعلوها ترقص.. وظلوا يشربون طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال دون توقف.. ولم يسكروا.. وأخيراً باعوها بمئة ليرة.. لشباب قرية هناك.. ويقصد بكلامه هذا:

ـ أنه لا يسكر من زجاجة واحدة ولا ثلاث زجاجات.

ـ ولك كوجو.. أرى أن الطاولة ستلتهب.. أحضر زجاجة أخرى.

ولما جاء دور ياموك إحسان فتح صدره وقال:

- شوفو ولك.. الرجولة يجب أن تكون هكذا.. انظروا إشاراتها في الساحات.

كان صدره مزروعاً بجميع أنواع الجراح.. وشمر عن ساعده الذي نقش عليه (آه.. ولك آه ملحات الصفراء).. ساعده من الأسفل إلى الأعلى تغطيه آثار جراح السكاكين.. في كل منطقة من جسده عدد كبير من آثار الجراح.. أما الآخر.. فكان عنده أثر واحد لجرح في الجانب الأيسر من جسده.. ولم يكن جراء طعنة سكين.. بل جراح من نوع آخر.

قال باستيل حسين لياموك إحسان:

- ولك.. افتح ساقيك وأرنا كيف هربت أمام كردي جمعة.. ولحق بك من خلف وأدخل الأسياخ (الشيش) ما بين رجليك.

- من أنا..؟ أنا.. رجال.. ولك كوجو.. أحضر زجاجة أخرى.

كلا.. لم يكن في الروايات الأخيرة.. قصة واحدة فيها رجولة أو شجاعة.

صرخ ياموك إحسان:

- لم يبق في هذه الدنيا.. رجل واحد ولك.. لتكن أمي زوجتي.. إن كان هنالك رجل.. ولا رجل واحد.

صرخ ريزالي وقد آلمه كلام ياموك إحسان:

- هل ماتت الرجولة ولك..؟ كوجو.. أحضر زجاجة أخرى.

لمعت عينا الآخر الذي ملأ قدحاً دون ماء.. من قوة الشراب.. فقال الآخر:

- الرجولة التي تتحدث عنها يجب أن تتوضح في مجالس المحبة.

أما الثالث الذي لم يفتح فاه مطلقاً حتى الآن.. بل كان ينصت بدقة إلى حكايا الرجولة والشجاعة.. فقال شيئاً فقط ليكون قد قال شيئاً.

ـ هيا.. قل.. لنشرب.. ونرى من هو الرجل.. انظر.

قال باستيل حسين:

ـ ماذا تريد أن تقول يا صديقي؟

قال الآخر الذي كان يمسح العرق عن شاربه بقفا يده:

ـ لا شيء.

ـ كيف لا شيء..؟

وقال ياموك:

ـ ماذا تقصد بكلامك هذا..؟ هل هناك امرأة بيننا؟

ـ لا.. لا أعني ذلك؟

الله.. الله.. ماذا حصل الآن يعني.. مضت ساعتان وهما يتحدثان.. هل خربت الدنيا عندما تفوه بكلمتين لا غير؟

قال الآخر:

ـ حيثما وجدت امرأة.. توجد المشاكل.

ـ قل يا صاحبي.. إن كنت رجلاً.. أوضح كلامك أكثر.

كان ياموك إحسان قد تعلق بياقته:

ـ لا شيء.. والله لا شيء.. ما قلته كان وفق مجرى الحديث.

ـ ولك.. زِنْ كلامك وتحدث..

سأله باستيل حسين:

ـ هل أنت رجل ولك؟

ـ أنا رجل..

ـ قمْ ولك؟

ـ تعال إلى الخارج.

ـ أرنا رجولتك.

تحرك ياموك إحسان وباستيل حسين معاً إلى خارج البار.. وقالا:

ـ إذا كنت رجلاً.. هلم خارجاً.. نحن بانتظارك في الشارع.

إن خرج شيء.. وإن لم يخرج شيء آخر قدَّم كوجو فاتورة الحساب أمامه وقال:

ـ اثنان وخمسون ليرة.

حاول فهم وضعه.. لقد جاء إلى هنا للبحث عن عمل.. وأنه لا يملك قرشاً واحداً.. وأن أصحابه اقتادوه إلى هنا بالقوة.. ولكن أين المفر..؟ وقد أحاط به أربعة من ندَّال البار.. قال:

ـ حسن.. حسن.. سندفع.. أحضر زجاجة أخرى.

جاء إلى استانبول ليبحث عن عمل.. ومعه بضعة قروش.. وورقة من فئة المئة ليرة.. خاطها على كم سترته.. تحسباً لكل طارئ.. ولكن؟.؟.؟.؟. داعب مخيلته.. وأراد أن يفعل كما فعل أصحابه.. فقال لأحد الجالسين:

ـ أتحسب نفسك رجلاً..؟

لم يرفع الرجل صوته:

ـ انظر إلى هذا.. هل أنت رجل..؟

مرة أخرى لا جواب.. انتقل إلى رجل آخر يجلس على طاولة أخرى:

ـ هل أنت رجل؟

هل هذا أبكم.. أم ماذا؟

ـ هل أنت رجل ولك..؟

ـ فصرخ برجل آخر يجلس على طاولة خلفه:

- إن كنت رجلاً لاقني إلى الخارج.

ما من صوت.. فقال للذي أمامه:

- هل ماتت الرجولة ولك؟

الجميع صامتون لا يجيبونه.. نهض على رجليه وهو يترنح.

- كلكم.. حريمات.. ألا يوجد رجل واحد في هذا البار الطويل العريض؟

قال صاحب البار:

- كما رأيت.. لا يوجد في هذا البار.. رجل غيرك.. هيا ادفع الحساب وأرنا رجولتك.

سحبوه إلى الداخل وأوثقوا كتفيه نحو الخلف.. كان يمتنع عن الدفع.. ولكن عندما وجهوا قبضتين قويتين إلى أنفه.. أخرج المال المخبأ في سترته.. وقال:

- لتبق الرجولة معي إلى المرة الثانية.

○ ○ ○

حكايتنا جميعاً

يجب أن نقول له السيد علي المقتول.. لا السيد علي المرحوم.. لأنه ذهب ضحية جناية بشعة.. وهاأنذا.. أوضح وأكشف عن هذه الجناية المخيفة. وعلى النيابة العامة أن تتحرك على الفور معتبرة توضيحي هذا بمثابة إخبار.. وأن تقبض على الجناة. لقد تعاون خمسة أشخاص على قتله ولم يقتله شخص واحد. وهؤلاء الجناة الخمسة والذين يحبهم السيد علي أكثر من روحه هم أقرب المقربين إليه: زوجته الحبيبة.. وابنته الحبيبة.. وابنته الصغرى.. وابنه الحبيب.. وابنه الأصغر.

هؤلاء الخمسة هم القتلة.. الزوجة الغالية قتلت زوجها.. والأبناء الأعزاء قتلوا والدهم. والله أنا لا أفتري عليهم لأنني سأضع أدلة الجريمة بين أيديكم أولاً بأول.

تكونون محقين إذا اتهمتموني بظلم هؤلاء الخمسة.. إذ لا يعقل أن تشترك الأم وأولادها الأربعة في قتل والهم.. والنيابة لم تعلم بذلك.. وكذلك الشرطة.. وخاصة الجيران والأقارب.. والأغرب من ذلك كله.. الطبيب الذي عاين الجثة.. ولم يعرف أنه مقتول.

نعم.. الجميع لم يفهموا ذلك أبداً.. هل أقول لكم شيئاً أهم من كل ما تقدم؟ الجناة الخمسة.. لا يعرفون أنهم قتلة.. حتى ولو أحيلت الجثة إلى الطب الشرعي.. لما عرفوا أنه مقتول.. لأن الجريمة لم تحصل بآلة قتل كلاسيكية.. لم يستعمل المسدس ولا السكين في الجريمة.. ولم تقتله زوجته بوضع السم على قهوته وطعامه.. ولم يقتل كما يفعل الورثة المقربون مثلما يحصل في أمريكا وبعض الدول الأوروبية.. بوضع السم

على طعام مورثهم.. كل يوم مقداراً أكثر من اليوم الذي سبقه.. ولم يخنق بحبل.. ولا بغاز..

إذاً كيف تم قتل السيد علي؟

السيد علي قتله الحب.. نعم.. الحب.. ولا يكون عندكم أدنى شك في ذلك. السيد علي قتله الحب ليس إلا. حب زوجته وأولاده.. وإياكم أن تفكروا بالغيرة أوغيرها.. أبداً.. لا ليس من الغيرة.. سأوضح لكم الآن.. كيف تسبب حب الزوجة والأولاد في مقتل السيد علي. جذور هذه الجناية تعود إلى ثلاثين عاماً.. كان السيد علي شاباً مندفعاً إلى الحياة.. وكان دخله صغيراً آنذاك.. وكل ما يتمناه هو أن يبني عشاً سعيداً لنفسه وأولاده.. زوجة جميلة مخلصة.. ومجموعة من الأطفال يغردون كالبلابل من حوله.

في حياته الماضية كلها.. لا في طفولته ولا فتوته ولا عزوبيته.. لم يعش يوماً جميلاً أو سعيداً أبداً.

أحب فتاة حلوة.. وبادلته الحب.. قال والد الفتاة يومها للسيد علي وهو يزوجه ابنته:

ـ انظر يا بني.. سأكون صريحاً جداً.. أنا ربيت ابنتي كزهرة يانعة.. اعتنيت بها جيداً.. عاشت بدلال.. لم تطبخ في منزلي طعاماً.. اترك طبخ الطعام.. حتى أنها لم تعمل القهوة.

كان على السيد علي أن يحني رأسه لجميع شروطه.. فقد كان يحبها.. ولأنها كانت جميلة جداً.

في حفلة الخطوبة أنفق ومن أجلها فقط كل ما يملك.. وكان عليه أن يعمل أكثر مما يعمل الآن.. وأن يربح مالاً أكثر ويدخر مالاً أكثر.. لأن حبيبته قالت له ذات مرة وهي تنظر إلى عينيه:

ـ حفلة العرس.

قالتها بدلال ونعومة نادرين.. وما حفلة العرس..؟

على الرأس والعين.. عليه أن يعمل الآن دون انقطاع حتى يؤمن مالاً أكثر.. لآن حبيبته الغالية قالت له بصوتها الناعم الرقيق؟.؟.؟.؟.؟.:

- نريد شهر عسل.

ماذا يعني شهر العسل؟! وتقولها بهذا الصوت الناعم الرائع (شهر عسل)..!

لو قالت له: مت. فسيموت.

انطلق السيد علي إلى العمل كالعاصفة.. وربح كثيراً.. ودام شهر عسلهما أربعة أشهر ونصف.

زوجته ملاك.. نعم إنها مثل الملائكة.. قالت للسيد علي وهي تمسح شعره بأناملها الفضية:

- لنفرش شقة كبيرة في بناية كبيرة..

هذه الكلمات لم يطلقها فمها ولا لسانها.. بل فهمها السيد علي من خلال نظرات عينيها.

كان على السيد علي أن يربح أموالاً كثيرة ليحقق لها حلمها ويؤمن الشقة ويفرشها.. لم يترك من وقته دقيقة واحدة دون عمل.. وأخيراً حقق ما أراد..

أمسكته زوجته الحبيبة من يده وقالت:

- سيكون عندنا طفل يا حبيبي.

- ماذا..؟ تقولين طفل..؟ يا لها من سعادة؟

إذن السيد علي سيصبح أباً.. وستزداد مسؤولياته.. ولكي يربح أكثر.. كان عليه أن يعمل أكثر.. وفعل ذلك.. لأن السيد علي كان رجلاً ولا كل الرجال.. قدوة لكل رب أسرة.. ولكثرة ما كانت زوجته ناعمة

وجميلة.. ولبقة.. إن أرادت شيئاً ما .. لم تكن تجبره على القيام به. قالت:

ـ ألن نذهب إلى المصيف يا حبيبي..؟

أكثر الأحيان لم تفصح عن رغبتها فوراً.. ولكنها كانت تشرح وتطلب كل شيء بنظراتها الناعمة أكثر من الحرير.

كان السيد علي يعمل بشكل ضحى بكل ما يريحه من مشاوير ونزهات.. حتى لم يكن لديه وقت لشرب القهوة.. يجب أن يذهبوا إلى المصيف.. ومن أحسنها.

كانت عنده مربية لطفله.. خادمة خاصة لزوجته.. وطباخ ونادل.. وإذا ما رأت زوجته ساعة في يد إحدى النساء أو خاتماً ثميناً أو مصاغاً أو أي شيء.. كانت تشرح كل ذلك بعينيها.. هذه النظرات الخفيفة.. كانت تجعل السيد علي يمشي على الأربع مثل البغل.. تجعله يعمل.. ويشتري لها كل شيء.

وجاءهم الولد الثاني.. ثم الثالث.. ثم الرابع.. صبيان وبنتان.. أربعة ملائكة. ثقلت المسؤولية على كاهل السيد علي.. وكان عليه أن يتحملها بكفاءة.. مثل بغل لا يكل ولا يمل.

ـ أين سيدرس ابننا يا حبيبي؟

بكل تأكيد.. في مدرسة أجنبية مشهورة..

ـ مستقبل أولادنا..

نعم.. كان عليه أن يضع في البنك مالاص بأسماء أولاده.. يجب أن يكون هنالك مدخرات مالية لأولاده.. عندما يدخلون معترك الحياة. ولبناته الجهاز والتجهيز.. من كل شيء.

كان السيد علي يعمل المستحيل لتلبية متطلبات مستوى حياة عائلته

التي تزداد يوماً بعد يوم.. ولذلك تأتي أيام.. لا يتناول فيها طعام الغداء.. حتى ولا يركب الترمواي.. وإذا ما أحس أن أحد أفراد عائلته مصاب بصداع ما في رأسه كان يرسلهم بنزهة إلى أوروبا.. تقولون لماذا؟ كي لا يشعروا بالصداع.. بناته حصلن على الثانوية العامة الأجنبية.. أحد أولاده درس في أوروبا.. عاد.. وذهب الآخر.. وعاد.

عندما ينظر السيد علي إلى أولاده.. تغرورق عيناه بالدموع لشدة محبته الأبوية وحنانه المفرط.. والحقيقة.. ما شاء الله كان الأولاد ذوي طلعة بهية ووسيمين.. كانت زوجته تقول له وهي تعزف على البيانو:

ـ لو كان عندنا بيت خاص لنا..

آه.. من هذه الزوجة الحبيبة.. عمل السيد علي المستحيل.. وكم من ليال مرت عليه دون أن ينام.. يعمل كآلة عملاقة.. يريد هدَّ الجبال.. وتحولت رغبة زوجته إلى حقيقة.. اشترى بناءً من سبعة طوابق.. والآن.. لو مات السيد علي.. لا يموت خائفاً على مستقبل عائلته. كان لكل منهم حسابه الخاص في البنك.. يسكنون في طابق.. ومن إيجار الطوابق الأخرى يعيشون حياة مترفة. كان على السيد علي أن يثق مما فعله.. فجمع عائلته ذات يوم.

كان كل واحد منهم ينطق باسم الأبوة.. أبي..

زوجته تقول: زوجي الحبيب. ابنه الكبير: أبي.

هذه الأصوات كانت أشبه بموسيقا رائعة تنساب على أذن السيد علي.. وكل صوت له معنى ومغزى.. هو الوحيد الذي يستطيع أن يفهم. كل واحد يريد لنفسه شيئاً. قال في نفسه:

ـ على الرأس والعين يا أحبائي.. يجب أن أعمل بجد أكثر.. وأربح مالاً أكثر.

تحرك للعمل.. ولكن.. ولكن الحمل كان كبيراً جداً.. لم يستطع حمله. وإذا بصوت يصدر من أعماقه:

ـ أوووه.. وسقط على الأرض.. هذه الأوووه كانت أنفاسه الأخيرة.. مات في حضن زوجته الحبيبة وأولاده الأحباء.

وهكذا كان السيد علي المرحوم.. يعني المقتول.

والآن.. ابنته الكبرى في أمريكا.. وابنته الصغرى تزوجت.. ابنه الأكبر في إيطاليا.. وابنه الأصغر يقضي شهر العسل مع زوجته.

قهقهات عالية تصدر من الطابق الرابع لبناية السيد علي.. المسكينة زوجته.. تحاول التمويه على نفسها وتتصنع الضحك كي تنسى زوجها.. مخافة أن تجن.. ساعدني يا ربي.. يا له من ألم كبير.

أعزائي القراء.. أتمنى أن لا يكون السيد علي هذا واحداً من المقربين إليكم.. أو أحد أصدقائكم.. أظنكم تقولون في أنفسكم:

ـ كم هو كاتب ظالم..!

وكأنني أحس بما تقولونه.. أنا لست ظالماً.. الحياة هي الظالمة. أعزائي القراء.. لأن أحد المقتولين مثل السيد علي.. أنتم.. وأنا..

○ ○ ○

حارس بانايير

هذه قصة حضوري الأول إلى استانبول.. لم أصبح كاتباً بسهولة كما تتصورون.. فأنا لا أملك أية شهادات علمية على الإطلاق.. لقد اجتمعت في كل الجوانب الإيجابية لأكون كاتباً كبيراً ذا مركز محترم.. فقد قمت بأعمال لا عد لها ولا حصر.. معروفة وغير معروفة في العالم.. بعت جميع أنواع المنظفات.. وبودرة زهر الكبريت لقتل البراغيث.. عملت طبالاً في مسارح متجولة.. وفشلت في كل عمل قمت به.. وكما تعلمون.. الأشخاص الذين يعملون ويفشلون في كل أعمالهم إن كان في أوروبا أو في أمريكا في النهاية يصبحون كتاباً محترمين.. وهذا الفشل يكفي كي يدفع الإنسان ليصبح كاتباً.. وكان عمل حارس (بانايير) واحداً من الأعمال التي مارستها وفشلت.

جئت إلى استانبول وتحت إبطي أربع عشرة رواية.. وخمس مسرحيات.. وثمانية آلاف بيت شعر.. وثلاثمئة قصة قصيرة.. كانت الآمال العريضة تدق أوتادها في قلبي.. وحسبت أن الجرائد والمجلات ودور النشر سيستقبلونني بود زائد ويتقاسمون أعمالي.. حتى أنهم كانوا سيقولون لي: «أعندك كل هذه الجواهر..؟ لماذا لم تظهر حتى الآن؟» وأنهم سيخاصمونني . هكذا كنت أتصور.

ولكن حساب السوق لم يتفق مع حساب الصندوق.. كان جميع الذين أريتهم كتاباتي عاجزين عن فهمها وتقديرها ونقدها. وككل المغرورين الذين أعجبوا بأنفسهم.. بقيت جائعاً في شوارع استانبول.

البركة.. مازال هنالك أناس طيبون فيهم خير وبركة وإنسانية.. فقد قال لي أحد هؤلاء الطيبين:

ـ اذهب وارم بنفسك من رأس السراي.. خلص نفسك وخلص العالم من أمثالك.. هذا هو الحل الوحيد.

عندما كنت أفارقه.. بعد أن قدمت له شكري قال لي:

ـ هل معك مال؟

قلت:

ـ لا.. لا أملك شيئاً.. لماذا المال..؟ ماذا أفعل به إذا كنت سأنتحر..؟ هل الإنسان يشتري بطاقة ويرمي بنفسه من رأس السراي؟!

قال:

ـ لا.. حتى التبول يحتاج إلى مال.. والانتحار وحده مجاناً.. وبما أن اليوم هو عيد الربيع.. لن تستطيع دخول حديقة (كلهانة).. خذ هذه خمسة وعشرون قرشاً.

قلت:

ـ عندما نلتقي في الآخرة أردها لك.

كانت حديقة (كلهانة) مزدحمة بالبشر.. رأيت شخصاً غريباً مثلي.. قلت له:

ـ المعذرة يا سيدي.. كل هؤلاء الناس دخلوا إلى هنا كي يرموا بأنفسهم من (رأس السراي)؟

قال:

ـ لا.. لا.. آمالنا لم تتحطم بعد بما فيه الكفاية.

شرحت له نيتي.. قال:

- أبارك لك حماقتك وغباءك.

- ولكن ما من شيء يحتاج إلى تبريك وتمجيد.

- لأنه لم يبق سواك غبي في هذا الزمان..

قلت:

- ولكن أنا خائف جداً.

قال:

- إذاً تعال معي لأجد لك عملاً..

هكذا بدأت أعمل حارساً في مرمى (باناير)..

على زاوية الحديقة.. فسحة صغيرة.. ترابية.. رفعوا فيها ثلاثة مرامي.. مرميان لهما حارسان.. أما الثالث ففارغ.. لا يوجد فيه حارس.. سألني المعلم:

- هل عملت حارساً في حياتك؟

قلت:

- ما هذا السؤال الذي تسألني..؟ المرمى يعني هو أنا.. شخصياً يسمونني الحارس (كامل جنق القعلجي).

أفهمني طريقة العمل بعد أن قال لي: «عفارم».. والعمل على هذا الشكل. القادمون إلى الحديقة بمناسبة عيد الربيع.. يدفعون عشرة قروش.. ويشوطون الكرة في المرمى.. فإذا ما سجلوا هدفاً على المعلم أن يعطيهم ليرة واحدة.. قال لي:

- ستقف حارساً منذ السابعة صباحاً حتى الثانية عشرة ليلاً.

سألته:

- وكم ستعطيني؟

قال:

ـ أعطيك عن كل كرة تمنعها دخول المرمى قرشاً واحداً.

ـ وإذا لم أقدر على ذلك؟

ـ عندها أعاقبك عن كل كرة تدخل مرماك بخمسين قرشاً.. ماذا..؟ هل أنت راض..؟

كنت أمام حلين لا ثالث لهما.. إما أن أرمي بنفسي من رأس السراي.. أو أن أقف حارساً في ذلك المرمى.

قلت:

ـ أنا راض.

وقفت في المرمى.. وبدأ منادي (البانايير) يوزع الإعلانات عني وعن مهارتي في تخليص الكرات.

ـ الذي ترونه أمامكم هو بؤبؤ عين المنتخب الوطني.. الحارس المشهور الملقب بكامل جنق قلعجي.. هاهو يتحداكم.. هل من شخص واثق من نفسه..؟ كل هدف بليرة.

المشتري الأول لا أنساه أبداً.. حافي القدمين.. ثيابه رثة أكثر مني.. وضع الكرة في المنتصف.. وتراجع نحو الخلف.. أما أنا فانحنيت نصف انحناءة.. وفتحت ذراعي إلى الجانبين.. وعيوني في قدميه. كنت أنزل قليلاً وأعود ثانية.. كي أوازن جسدي.. ضرب الغلام الكرة بقوة.. لم أعرف ماذا حصل لي.. أما رأسي الذي اصطدم بالعامود.. انتفخ وتورم وصار مثل بالون.. قلت وأنا ممدد على الأرض:

ـ آوت.. هذا غير محسوب.

دفع المعلم ليرة واحدة للولد.. وقال لي:

ـ وأنت مدين لي بخمسين قرشاً.

كي أخلص الكرة الثانية.. فتحت عيني جيداً.. ولكن عبثاً.. صار دين المعلم ليرة واحدة.. ولكي أسدد ديني.. كان علي أن أخلص مائة كرة وهدف.. أمسكت الكرة الثالثة.. إلا أنني دخلت معها لشدتها وقوتها.. ولأنني جائع منذ يومين.. لم أذق فيهما لقمة واحدة.

كانت ثيابي قد تحولت إلى قطع صغيرة.. من كثرة القفز والوقوع على الأرض.. والاصطدام هنا وهناك.. كي أخلص الكرات الموجهة إلى المرمى.. وتحول رأسي إلى ينبوع دماء.. ولم يبق فيه مكان خال من الأورام.. عند ساعة الانصراف جلسنا نتحاسب مع المعلم.. وبما أنني مرهق جداً.. كنت متمدداً على الأرض. قال المعلم:

ـ اليوم شاطوا خمسمائة كرة على مرماك.. أمسكت منها أربعمائة وخمسين كرة..

فرحت جداً لأنني كنت قد ربحت أربعمائة وخمسين قرشاً.. وكان المعلم يشاركني فيما أفكر فيه.. حيث قال:

ـ الحقيقة هذا جميل جداً.. وخاصة أنك لازلت في يومك الأول.. هذا نجاح باهر حقاً.. لك مستقبل رائع.. لم يدخل في مرماك سوى خمسون هدفاً.

ـ نعم.

ـ وبما أنك خسرت خمسين هدفاً.. فهذا يعني أنك ستدفع خمساً وعشرون ليرة.. تنقص منها أربع ليرات ونصف.. تعمل غداً حتى تؤديها لي.

ـ بالله عليك يا معلمي.. أكاد أموت جوعاً.. أعطني عشرة قروش لأشتري كعكة.. ويصبح بذلك دينك إحدى وعشرين ليرة وستين قرشاً.

لا أستطيع أن أشرح لكم ماذا فعلت بنفسي كي لا تدخل الأهداف مرماي في المرة الأولى.. اصطدمت الكرة بأنفي.. ربما نزف مني أكثر من

كيلوغرامين من الدم.. عندما انتهينا من اليوم الثاني.. كان ديني قد ارتفع إلى ست وثلاثين ليرة.. وبما أنني مديون.. لم أستطع أن أرمي نفسي من رأس السراي.

بعد أسبوع.. وبعد أن تجاوزت ديوني المئتي ليرة.. فكرت بيني وبين نفسي واتخذت قراراً.. عندما وقفت في المرمى.. لم أمسك بكرة واحدة في ذلك اليوم.. كنت أتظاهر وكأنني أحاول الإمساك بالكرة. في نهاية النهار وبعد أن دفع المعلم مئة وثمانين ليرة.. أمسكني وقال:

ـ تعال إلى هنا.. إنني أطردك من العمل.. ولكن إياك أن تذكر أمام بعثة الحراس ما فعلته بي.. خذ هذه العشر ليرات واذهب.

هل تعلمون ماذا فعلت بالمبلغ الذي ربحته خلال أسبوع واحد..؟ شطت أهدافاً على المرمى.. كنت سأربح عشرين ليرة بالعشر ليرات التي كانت معي.

ضربت الكرة عشرين مرة لباقي الحراس.. ولم أسجل هدفاً واحداً.. حراس أغبياء وحمقى كثر في هذه الدنيا.. الذنب ذنبهم.. ماذا كان يحدث لو سمحوا لهذه الأهداف بدخول مراميهم..؟

○ ○ ○

الشكر لله

قفزت آخر لحظة إلى التراموای المنطلق من (قاضي كوي) إلى (بستانجي).. وكان هذا الترمواي الثاني.. بعد ركوبي مباشرة تحرك.

كنا ثمانية أشخاص في الفسحة الخلفية.. قبل كل شيء حاولنا تركيز أنفسنا ضمن هذه المساحة الصغيرة.. أمامنا عجوز لبس فوق نعله العادي حذاءً بلاستيكياً.. وتهدلت أطراف قبعته كثيراً حتى تحسب أنها ذبلت.. وضع الصرة التي كان يحملها أمام نافذة الترمواي الخلفية. الشخص الثاني متوسط العمر.. ثيابه ملأى بالتبن ويحمل سلة في يده.. ركزها جيداً فوق الصندوق الحديدي وقال لأحد المسافرين الذي غطت وجهه صفرة تشبه صفرة الأموات:

ـ إياك أن تستند إلى هذا الصندوق يا أخي.. السلة مليئة بالبيض.

أحاديث الأشخاص الثمانية كلها كانت تتمحور حول هذه البيوض.. ولكن حتى مع عدم وجود البيض.. كنا سنجد موضوعاً للنقاش بكل تأكد.. ومهما كان موضوع الحديث.. ما هو إلا لتفريغ الشحنات المتراكمة في أعماقنا.

سأل الرجل الذي طلب منه عدم الاستناد:

ـ بكم اشتريتها..؟

كانت خطوط وجهه قد تهدلت نحو الأسفل.. كأنها تأثرت بجاذبية الأرض.

قال الآخر:

ـ لا تسأل.. الأسعار مثل النار.

قال العجوز ذو القبعة المهترئة:

ـ وما الشيء الذي بقي سعره رخيصاً..؟ كل شيء مثل النار.

حتى هذه اللحظة لم أفتح فمي مطلقاً وكذلك الرجل ذو الشارب الأسود الكثيف.. أما الستة الباقون.. فصاحوا دفعة واحدة وكأنهم يقولون «آمين»:

ـ صحيح.

ـ لم يبق شيء رخيصاً الآن.

ـ الرخص أصبح حلماً يا سيدي.. حلماً.

ـ لنر.. أين سيوصلنا هذا الطريق (أي غلاء الأسعار).

ـ جعل الله نهايتنا خيراً.

ـ أنا شخصياً لا أرى الخير في نهاية هذه الطريق.

ـ ما اشتريناه قبل يوم واحد بليرتين.. أصبح في اليوم الثاني بليرتين ونصف.. ما هذا العمل؟ أنت تنام في بيتك.. أما الآخرون فلا ينامون.. طوال الليل يعملون على رفع الأسعار في الصباح.

ـ يا أخي قل الغلاء معقول.. أما الأهم فهو فقدان البضاعة في السوق.

ـ هناك قصة.. هل تعرفونها؟

ـ لا نعرف.

ـ صحيح ها.. لم أرو الحكاية حتى تعرفوها.

ـ ليكن.. أنا لا أعرف شيئاً أبداً.. ومع هذا هيا قص علينا الحكاية.

ـ يقولون يا سيدي إن رجلاً قبض عشرة آلاف ليرة مكافأة نهاية الخدمة بسبب إحالته على المعاش.. فذهب إلى أحد أصدقائه المقربين وممن

لهم إلمام بالسوق والتجارة.. يستشيره في استثمار المبلغ الذي معه.. حتى لا يضيع هدراً ويرشده إلى عمل يربح من جرائه أموالاً كثيرة.. فاقترح عليه صديقه أن يشتري حديداً ويبيعه في اليوم الثاني.. لنقل إن الرجل اشترى بالمبلغ الذي بحوزته عشرة أطنان من الحديد.. في اليوم التالي باع الحديد بخمس عشرة ألف ليرة.. جنَّ الرجل بهذا الربح الوفير في يوم واحد.. حيث ربح خمسة آلاف ليرة.. مرة أخرى قصد صديقه الخبير في الاستثمارات والأعمال.. وسأله ثانية فقال له الرجل: «اذهب على الفور واشترِ حديداً وستربح المال الكثير».

في السوق لم يستطع شراء سوى خمسة أطنان بالمبلغ الذي في حوزته وهو خمس عشرة ألف ليرة.

سأله الرجل صاحب الخوذة:

ـ ولماذا خمسة أطنان؟

أوضح العجوز قائلاً:

ـ لأن سعر الحديد كان يرتفع يوماً بعد يوم. المهم.. لا أريد إطالة الحديث.. لقد باع الأطنان الخمسة.. بعشرين ألف ليرة.. واشترى بهذا المبلغ طنين من الحديد.. فباعهما بثلاثين ألف.. ثم اشترى في اليوم التالي بأربعين ألف ليرة.. وهكذا.. فأصبح الرجل غنياً جداً.

ـ وبعد ذلك؟

ـ ثم صار معه مئتي ألف ليرة.. ولكن سعر الحديد كان على ارتفاع مستمر.. فلم يستطع أن يشتري بهذا المبلغ سوى قطعة كبيرة أو إزميلاً من الحديد.. ما كان من الرجل سوى أن وضع قبعته أمامه وبدأ يفكر ملياً.. إن باع هذا الإزميل اليوم لن يستطيع شراء مثله في اليوم التالي.. هل تدرون ماذا فعل بالإزميل؟

ـ ماذا فعل به..؟

ـ دقَّ الإزميل في الجدار وشنق نفسه.. وتخلص من المأزق.

كل من الركاب الستة صار يشكو همومه.. أما الآخرون فكانوا يخففون من ثورة غضبه وألمه بالقول: «صحيح.. صحيح جداً.. أنت محق».. توقف الترمواي في ستة مواقف.. لم ينزل أحد.. بل صعد رجل آخر وحشر نفسه بيننا.. فقال له صاحب البيض:

ـ المعيشة أصبحت قاسية جداً.. قديماً كان الخبز كما يقولون في فم الأسد.. أما الآن.. المعذرة.. أصبح في الدور.. يجب أن تمد يدك وتتشاجر مع الناس لتحصل عليه.

تدخل الراكب الجديد بالكلام مباشرة:

ـ كل شيء غال.. وخاصة إيجارات البيوت..

صاح الجميع دفعة واحدة: «صحيح».. وكأنهم يقولون «آمين».

بعضهم يشكو هموم المعيشة الصعبة.. والبعض الغلاء الفاحش.. والبعض ندرة وجود البضائع في السوق.. والبعض غلاء البيوت.. وآخرون يتحدثون عن هدم البيوت المستملكة من قبل البلديات.

والحقيقة.. لم أتدخل بالمحادثات حتى ولا بكتابتها كي لا أقع في مشاكل أنا في غنى عنها. كان انفعالهم عجيباً وهياجهم غريباً.. وكأنهم ذاهبون إلى مظاهرة.. كان كل منهم يقصد بيته.. بدأت أحاديثهم ترتفع شيئاً فشيئاً حتى تحولت إلى خطابات.. غير أن بعض الكلمات أوشكت أن تخرج من فمي.. كنت أريد أن أقولها لهم: «رويدكم يا شباب.. أيها المواطنون.. معكم كل الحق أو بعضه فيما تقولون.. ولكن ليس كما تدعون. خففوا من انفعالاتكم كي لا تقعوا في مشاكل مع الدولة». هذا ما أردت أن أقوله لهم.. إلا أنني لم أفتح فمي خوفاً منهم.. فالوقوف أمام المنفعلين خطر جداً.. ربما ضربوك.. أو شتموك.. لأنك لم توافقهم فيما يقولونه.. وقد قيل: «السكوت من ذهب».

عندما انطلق الترمواي من موقف (اليوغورتجو: أبو اللبن) كانت الأحاديث قد بلغت درجة عالية من القوة والانفعال.. عندها لم يستطع الرجل أبو الشارب الأسود تحمل كلامهم.. لأنه هو الآخر لم يفتح فمه أبداً مثلي فقال صارخاً:

ـ من قال لكم إن ما تطلبونه غير موجود..؟

أنا شخصياً خفت على الرجل.. ربما تحدث مشكلة وسط الترمواي.. حدقت في وجوه الأشخاص السبعة بدقة.. كانوا ينظرون إلى الرجل المعترض.. وقد عم الصمت بعض الشيء.. وكأنهم لم يفهموا ما يقول.. هل يمزح معهم أم يقول الحقيقة..!؟

فتح الرجل فمه ثانية وبدأ بالحديث:

ـ لنبدأ بكلمة لا يوجد.. ومشينا.. ما هو الشيء غير المتوفر..؟ عندما نبحث عن شيء.. نجد كل شيء.. والحمد لله.

الأشخاص السبعة أصبحوا في دوامة.. والذي عاد إلى وعيه قبل الجميع هو الشيخ الذي تتدلى خطوط وجهه نحو الأسفل.. جراء جاذبية الأرض.. فقال:

ـ الشكر لله.. كل شيء موجود.

ردد السبعة دفعة واحدة وكأنهم يقولون.. آمين:

ـ الشكر لله.

فقال الرجل أبو الشارب:

ـ الشكر لله.. لا يوجد .. غلاء أسعار أيضاً.

فقال الرجل الذي كان يتحدث عن الغلاء بغضب وهجوم مكثف أكثر من الجميع:

ـ نحن الذين نصنع الغلاء ونرفع الأسعار بأيدينا.. نقول يوجد غلاء

حتى ولو لم يكن.. وبذلك نكون قد أوجدناه بأنفسنا.

ـ نعم.. نحن سبب كل شيء.. لكثرة تكرارنا: لا يوجد.. لا يوجد.. خيَّم التشاؤم فوقنا.. الشكر لله.. كل شيء متوفر..

ـ الشكر لله..

ـ الشكر لله..

قال الرجل أبو الشارب الأسود:

ـ سأقدم لكم حساباً اسمعوا: أنا إنسان أعمل سائقاً.. منذ ست عشرة سنة كنت أقبض في الشهر مئة وخمساً وعشرين ليرة.. في ذلك الوقت كان سعر كيلوغرام السكر ثلاثين قرشاً.. الآن سعر السكر ليرتان.. أما راتبي الشهري فقد وصل إلى ستمئة ليرة.. لم يحدث أي فارق.. نعم. لقد ارتفع سعر السكر.. لكن الراتب أيضاً زاد.

قال الآخرون:

ـ نعم لقد زاد.. الشكر لله.

قال أحدهم وهو الذي كان يتحدث عن الغلاء بانفعال وهجوم لاذع:

ـ صحيح.. الآن توجد سيولة أكثر.. الشكر لله.. أموال أكثر.

ـ الشكر لله.

ـ حتى الحمال لا يحسب حساباً لخمس عشرة ليرة في اليوم.

ـ نعم إنه لا يحسب.. الشكر لله.

قال العجوز أبو القبعة المهترئة:

ـ نحن الذين نخلق الفقر.. والغلاء.. يخرج أحدهم ويقول: «الشاي مفقود» فيتهافت الناس على شراء الشاي.. كل منهم يشتري خمس أو عشر علب دفعة واحدة.. ثم يقولون: «لا يوجد شاي».. طبعاً سيفقد الشاي من الأسواق.. الشكر لله.. كل شيء متوفر.

ـ الشكر لله.. كل شيء موجود وبوفرة.

ـ الشكر لله.

قال أحد الركاب في موقف (فناريولو).. وهو ينزل من الترمواي.

ـ الشكر لله.. الشكر لله.

قال أبو الشارب الأسود:

ـ طبعاً.. الآن يوجد شيء اسمه التنمية.. ولهذا السبب نصدر ونبيع منتجاتنا للخارج.. ونقلل من الاستيراد. ولهذا السبب أيضاً.. سيتناقص عرض بعض السلع في الأسواق وبخاصة المستورد منها.

قال أحد الذين اعتادوا على ترديد كلمة (الشكر لله):

ـ مفقود.. الشكر لله.

ثم تصحح جملته مرة أخرى.

ـ التنمية نعم من أجلها نعم بعض السلع مفقودة.. ومع الزمن سيتوفر كل شيء.. الشكر لله.

ـ الشكر لله.

قال أبو الشارب الأسود:

ـ الشكر لله.. هل رأت استانبول نماء وإعماراً في تاريخها.. كما هي الآن..؟

ـ لم تر أبداً الشكر لله.. يعني.. الآن فقط ترى العمران والنماء.. هناك شوارع وأراض لم تر وجه فأس.. الآن تفتح فيها شوارع كثيرة وساحات واسعة وحدائق جميلة ومشاريع لها أول وليس لها آخر.

ـ نعم شوارع تفتح.. الشكر لله.

ـ يهدمون.. كل شيء.

ـ إنهم يهدمون.. الشكر ! ! يعني إنهم يفتحون الشوارع.

وصلنا إلى جادة البستان بدعاء «الشكر لله».. نزل الركاب.. واحداً بعد الآخر.. لم يبق إلا اثنان أنا وأبو الشارب الأسود وإذا به يقول لي:

ـ وأنت يا أخي.. بماذا تفكر..؟ لم تفتح فمك ولو بكلمة واحدة..!

الآن وصلت المطرقة إلى رأسي.. مصيبة مزركشة.. رفعت كتفي ورأسي ومددت ذراعي نحو الجانبين.. وكأنني أقول «لا أدري ماذا أقول».. لم أكن متشائماً مثلهم.. ولا متفائلاً مثل من كانوا يرددون «الشكر لله».. سألني الرجل ثانية:

ـ ما رأيك أنت؟

لو لم يكن الترمواي يجر باقصى سرعته.. لرميت بنفسي إلى الأرض.. مرة أخرى رفعت رأسي ومددت ذراعي نحو الجانبين.. وكورت شفتي.

قال الرجل:

ـ ألم تر هؤلاء الحقيرين..؟

سألته:

ـ من هم..؟

ـ الذين كانوا يرددون «الشكر لله»..

ـ نعم.

ـ الآن كلهم يشتمونني ويسبونني.. حتى وهم يقولون: «الشكر لله» هنا كنت أحس بما يدور في أعماقهم.. مثل هؤلاء.. تستطيع أن توجههم كما تريد.. يكفي أن يكون محدثهم قوياً.. ومثلهم لا يكون حبيباً لعيسى ولا صديقاً لموسى.

عندما كان الترمواي يقترب من (أرن كوي) قال الرجل:

ـ ما رأيك.. هل هناك غلاء في الأسعار؟

وبما أنني أجهل ماهية الجواب الذي كان ينتظره مني.. أصبحت في موقف حرج جداً.

ـ هل كل ما تبحث عنه متوفر؟ هل هناك غلاء؟

قلت:

ـ الشكر لله.

وقف الترمواي.. كنت أول من وطئت أقدامه الأرض.. طبعاً.. الشكر لله.. لأنني تخلصت من ذلك الرجل.

○ ○ ○

المتن العريض لكتاب الوالي

اليوم الثاني من عيد الفطر السعيد. كان البيت ممتلئاً بالزائرين والمعايدين.. الابن البكر في العائلة يحمل جريدة في يده. قال:

- لقد وجه السيد الوالي رسالة تبريك في جريدة (العيد).

قالت سيدة البيت:

- أحب السيد الوالي كثيراً.. هيا اقرأ.. ماذا كتب يا ترى؟

بدأ السيد (دوغان) بقراءة الجريدة:

«بعد صيام دام ثلاثين يوماً متتالية يسرع المواطنون (المعايدة) الكرام بغبطة ومحبة إلى مصافحة بعضهم البعض».

سألت السيدة:

- إلى أين يسرعون؟

قرأ ابنها السيد دوغان الكلمة وهو يهجيها حرفاً حرفاً:

- يسرعون.. موصافاهاسي نا.

قال أحد الضيوف سائلاً:

- وما هو معنى كلمة (المصافحة)؟

قالت السيدة الكبيرة تسأل مرة أخرى:

- إلى أين يسرع المواطن.. وإلى مصافحة من؟

صححت الكنة:

- ليست المصافحة يا أمي بل (هوماصافا).

غضبت السيدة الكبيرة:

ـ أنا من يعرف أكثر منك إن كانت مصافحة أم مصطفى.

ـ لو كنت تعرفين.. ما قلت بدل (المفاهصة) (خوهاماصا).

ـ آ آ.. يا حبيبي.. من الذي قال مفاهضة؟

ـ طيب ماذا قلت؟

ـ قلت: فوسوهاما.

في هذه الأثناء.. مزق أحد الأحفاد الجريدة بقوة فأصدرت صوتاً قوياً.. عندها تدخل أحد الضيوف لينهي الكلام بالموضوع ويلطف الجو بين الحماة والكنة.

ـ هذا معناه يا أفندم فوما ها صا.

أحد الضيوف يعمل مدرساً في اللغة التركية.. قال:

ـ في حياتي كلها لم أسمع بكلمة فوصاماها.

ـ يعني إذا أنت شخصياً لم تسمع بها.. يعني أنها غير موجودة..؟ هناك كلمات أخرى كثيرة لم تسمع بها أبداً.

ـ هل يعقل ألا أسمع بها.

فقال الجد الذي لم يكن قد تدخل في الموضوع حتى الآن:

ـ ما هي..؟ ما هو الشيء الذي سمعتم أو لم تسمعوا به؟

ـ هل سمعت بكلمة (صافاهوما)؟

ـ ها.. نعم.. عرفتها. يجب أن تكون اسماً لأحد الجزر اليابانية. والجزر اليابانية عددها أكثر من اربعمئة.. بين صغيرة وكبيرة.. وجزيرة (سوماهوفا) هي جزيرة خصبة جداً.

ـ ليست (سوماهوفا) يا بابا.

ـ ماذا إذاً..؟

ـ هوصامافا.

ـ كتبت خطأً.. الصحيح هي (فوصاماها).. نعم إنها جزيرة يابانية.

ـ غير معقول أبداً.. ليست جزيرة يابانية.. كتب السيد الوالي: المواطنون يسرعون.. الله.. الله.. ما علاقة المواطنين بجزيرة يابانية؟

ـ ربما هم سواح.

ـ والله لقد وجدتها.. يعني سيسرع المواطنون إلى الجزيرة اليابانية من أجل العيد.

ـ أحضروا الأطلس لأريكم موقع الجزيرة.

ـ أنا شخصياً لا اعتراض عندي على ذلك ربما هناك جزيرة باسم (ماصوفاها).

قال السيد دوغان صارخاً:

ـ يا إخوان.. قبل كل شيء حورتم أصل الكلمة.. أنا قرأتها في الجريدة (فاصوهاما) وأنتم تقولون (موهافصة) أو (هاموصافا).

ـ لا.. أنت قرأتها (سوهافوما) ولم تقرأها (موهافاصا).

ـ آي.. يعني لم أقرأها (صاهافوما).. والله وبالله قرأتها (هوصافاما).

ـ أين الجريدة..؟ انظروا إليها.. هل هي (سوهاموفا) أم (موهافاصا).. سنعرف بعد إعادة قراءتها.

حملوا الجريدة.. كان الحفيد قد شقها نصفين.. وكذلك الكلمة التي يريدونها.. قال السيد دوغان:

ـ أنا واثق تماماً أنني قرأتها (هوماصافا).

قالت امرأة من بين الحضور:

ـ نعم كلامك صحيح أنت قرأتها (صاهاموفا).

ـ طبعاً يا روحي.. ألا يعرف الإنسان ما قرأه.. بكل تأكيد قرأتها (فوصاماها).

هاه.. الآن تم فهم الموضوع.. لو تقولون عنها (هوماصوفا). يعني (صاهافوما).. وكما تعرفون.. بعض الأشياء لها خمسة أو ستة أسماء / مثلاً/ المرحاض.... مائة اسم فنقول مرحاض بيت الخلاء.. ونقول عنها أيضا /كابين/ ، /تواليت/.

ـ ماميش خانة.

ـ بيت الأدب.

ـ صانّوميرو.

ـ دَبليو سي.

ـ قدم خانة.

ـ بيت الوضوء.

ـ هاه.. تمام.. الإيطاليون لا يقولون (كبين) في مجالسهم لأنها كلمة معيبة.. بل يقولون (ماصافوها) هل فُهم الآن؟

ـ والله وجدتها يا أبي.. الإنصاف.. يقول الوالي: المواطنون يسرعون إلى (ماصافوها).. يعني المواطنون يسرعون إلى المراحيض؟

ـ ولماذا لا يسرعون..؟ المواطنون الآن يسرعون إلى جميع الاتجاهات.. وإلى كل مكان.. يجدونه فارغاً.. إلى السفن والقطارات والحافلات والترموايات.. يعني ألم يبق مكان فارغ الآن؟ حيثما تجد الفراغ تسرع إليه.

ـ هذا غير ممكن.. مستحيل.. هذه الـ (صاهاموفا).. يجب أن تكون متعلقة بالاحتفال بالعيد.. مثل السيرك أو غيره.

ـ هل قلت (هوصامافا)؟ نعم لقد عرفتها.. انتظري يا حبيبتي.. ماذا كان يسمى أخ النبي (دانيال)؟

ـ لا.. لا.. هذا غير اسم.. اسمه (هوصافاما).. يعني هل سيسرع المواطنون لفرحهم بالعيد إلى النبي (دانيان)؟!! والله حزرتيها..!

ـ الآن فقط تذكرت ما هي (ساهومافا).. قديماً كان هنالك فقير هندي يسمى (ساهومافا).. أكيد قرأتم القصة في الصحف هذا الـ (موفاصاها) كان يعزف على مزمار .. فيجعل الحبل يرقص مثل الأفعى.

ـ ولك روحي هذا الفقير الهندي المسمى(فوساموها) كل الناس تعرفه.. هذا ليس بـ (ماسافاهو) .

ـ صافاهوما..

ـ فاصوهاما..

ـ ماصوهافا..

ـ ماصافوما..

ـ آي آمان.. اتركوا هذا.. ليكن ما يكون.. هل طلب منا البحث والتدقيق في معنى هذه الكلمة؟.. ليكن (صاموهافا) أو (فاصوهاما)..

ـ كلامك غير معقول يا سيدتي.. في الوقت الذي يسرع فيه الجميع إلى (هاصامافو).. ونبقى نحن جالسين هنا؟ ربما هي على شكل بقَّال.. أو جقَّال.. يوزع القهوة والشاي.

كانت فرحة العيد قد فاتت الجميع. وفي اليوم الثاني تبين أن البعض قد تأثر من الآخر.. وبقيت العائلة متخاصمة إلى العيد التالي.

○ ○ ○

اشتريت قماشاً وطنياً

قصدنا أحد المخازن أو المحلات التابعة (لبنك سومر).. والتي تعرض وتبيع البضائع المحلية والوطنية.. في البدء ألقينا نظرة على الواجهة. آمان كم هي بضائع جميلة. أعجبتنا قطعة قماش تسمى (pazen) (بازن) قطنية ناعمة سميكة.. زرقاء اللون وأخرى تسمى باسما (basma).. حمراء عليها نقط بيضاء.

دخلنا المخزن.. إنه كبير وواسع.. وسقفه عال جداً.. في مقابل الباب فتاة تجلس إلى مكنة الحساب.. كانت تبرد أظافرها. في الوسط مدفأة.. وإلى جانبها رجل أنيق عريض المنكبين.. ذو رقبة غليظة ملامحه أقرب إلى السياسيين في أناقته وملبسه.. جلس يحتسي القهوة.. إلى جانب الخزانة وقف شاب يتحدث مع الفتاة التي تبرد أظافرها.. خلف طاولة العرض كان رجل في الأربعينات من عمره يقرأ جريدة.. وأحدهم يفجر حبات الشباب من جبينه من خلال مرآة صغيرة يحملها.. وعلى زاوية طاولة البيع جلس شاب يقرأ رواية بوليسية غلافها ملون لماع.

بما أننا جئنا باكراً كان المخزن خالياً من المشترين.. ما خلا ثلاثة أو أربعة أشخاص كانوا ينظرون إلى الواجهة من الخارج.. عندما دخلنا.. لم يرفع أحد رأسه وينظر إلينا.. هذا التصرف أعجبني كثيراً.. لأنني أحب البائعين الذين يقودون الناس إلى محلاتهم وهم يقولون: عندنا بضائع جيدة.. تفضلي يا سيدتي.. هل تطلبون حاجة ما.. أو تريدون شراء شيء ما..

نظرنا ذات اليمين وذات الشمال.. لا أحد يبالي بنا ولا يهتم.. الفتاة تنعم أظافرها.. السيد يقرأ الجريدة.. والآخر يفجر حبات الشباب..

والقريب منا يشرب قهوته.. والآخر رأسه في الرواية.

ولم نكن نعرف من سنسأل ومع من سنتفق.. اقتربنا من طاولة البيع.. ننظر إلى أثواب القماش المكدسة على الرفوف.. ونتحدث فيما بيننا.

ـ هذا القماش يصلح أن يكون ستائر جميلة جداً.

ـ ما أجمل هذه الكرتونات المغصنة.

ـ بكم المتر يا ترى؟

ـ كم عرضه يا ترى؟

ـ نسأل من يا ترى؟

الشاب الذي أمامنا كان منسجماً جداً مع روايته حتى أنه لم يسمع شيئاً من حديثنا.

ـ أنا سأشتري من هذا القماش وأصنع منه غطاء للطاولة.

ـ لا ترفع صوتك.. كما ترى.. الرجل يقرأ في كتابه.. على الأقل لو جئنا متأخرين بعض الوقت.. لتعلمنا من المشترين الذين سبقونا.. وتصرفنا مثلهم.

وفيما نحن على هذه الحال وإذا بمجموعة من المشترين يدخلون المخزن.. فامتلأ بالزبائن حتى الباب.. ولكن هم أيضاً مثلنا في حيرة من أمرهم.. لا يدرون كيف سيتصرفون.. يذهبون ويعودون.. وكأننا في معرض رسام. كان المشترون يتهامسون فيما بينهم حتى لا يقطعوا الصمت المطبق على المكان.. الذي لا يعكره سوى قهقهات الشاب والفتاة حين يتحادثان.

سأل أحد المشترين بصوت عال.. كي يسمع الجميع:

ـ ألا يبيعون البضائع في هذا المخزن يا ترى؟

قالت سيدة مسنة إلى رجل قريب منها:

ـ ربما.. يجب أن نأخذ فيشاً..

ثمة امرأة شابة تسأل:

ـ هل تقولين الفيش..؟ ومن أين سيؤخذ؟

ـ ربما من المديرية العامة.

بدأ الجميع يتحدثون.. متهكمين ومتسائلين. بأصوات ظنوا أنها بلغت أسماع العاملين.

ـ قبل كل شيء.. يجب أن تحضروا ورقة حسن سلوك من المختار.

ـ ليس ورقة حسن سلوك يا خالة.. بل ورقة ماشي الحال.. يعني هل أنت منتسبة إلى حزب الحكومة..؟ وهل عندك سوابق قبل أن تحضري إلى هنا؟

ـ والله وجدتها يا أخي.. ألا تقرأ الجريدة اليومية..؟ إنهم يشددون الرقابة على الجرائد.

ـ هذا الباسما غير وذاك الباسما غير.

ـ من يحمل معه ورقة من مديرية الفحم.. يعطونه هنا كل شيء.

ـ وهل هناك علاقة بين بيع الفحم والبيع هنا؟

ـ طبعاً يوجد.. الفحم تابع للحكومة والبازن.. أيضاً .. وكذلك القماش الأمريكي.

ـ أنا شخصياً كنت سأشتري بابوجاً لابني.

ـ حتى البابوج للحكومة..

ـ يا روحي.. لماذا تدخلين الحكومة في أمور لا تعنيها؟!

ـ بكل تأكيد أُدخلها..

ـ تعملينها.. ولكن اذهبي الآن وأخبير البوليس أن هذا الشخص

جاسوس.. أو (أجانس).. وعندما تأخذين تقريراً طبياً من الطبيب العدلي أو الشرعي.. عندها تعودين إلى رشدك.

ـ هل معكم هويات؟

ـ لا..

ـ إن لم يكن معكم هويات.. وست صور شمسية لا يعطونكم شيئاً.

ـ ألا يقبلون بشهادة السواقة؟

أمعقول هذا الكلام..؟! انتظرنا طويلاً ولم يلتفت إلينا أحد.. اقتربت من الرجل الذي شرب قهوته وغرق في حديث ودي مع الآخرين.

ـ المعذرة..

وكأنني لا أتحدث إليه.. كان يصف لزميله مباراة (بيكوز والوفاء).

ـ نزل؟.؟.؟.؟.؟ من اليمين.

ـ عفواً.. المعذرة.

ـ ماذا تريد يا عيني..؟ ألا تراني أتحدث مع زميلي..؟ خلّص الكرة من طوران.. وشوط.. الكرة في الشباك.

اقتربت من الآخر:

ـ المعذرة.. نريد شراء قطعة قماش من (البازن).. ممَّن سنشتريها؟

أشار بإصبعه نحو اليسار دون أن يرفع نظره عن مرآة الجيب الدائرية الصغيرة التي يحملها.. الشخص الذي أشار إليه كان يحل الكلمات المتقاطعة.

ـ نريد شراء (بازن).. هل أنت ستبيعها لنا؟

ـ اذهبوا إلى السيد زهدي.

ـ هل أنت السيد زهدي؟

ـ أنا.. ماذا تريد؟

ـ لا شيء.. سألنا.. كنا نريد شراء بعض الأمتار من قماش (البازن)..

مدَّ يده إلى الرف الذي خلفه وأنزل طوباً من (البازن) الأسود.

ـ كم متراً تريد؟

ـ لا نريد من هذا اللون.. رأينا لوناً في الواجهة.. زهري عليه زهور زرقاء..

ـ لم يبق منه.

ـ يوجد في الواجهة يا سيدي..

ـ الموجود في الواجهة لا نستطيع بيعه.. إنه للعرض فقط.

ـ في هذه الحالة.. ألا نستطيع رؤية هذا اللون الأصفر؟

ـ لا يوجد عندنا.. فتشت من أعلى إلى أسفل.. انظر إليها من خلال الرف.. كلها (بازن).. أي لون تريد..؟ خبرني..

ـ نريد الأصفر.

ـ كم متراً؟

ـ خمسة أمتار.

ـ لا نستطيع أن نقطع خمسة أمتار.. إن أردت نبيعك الثوب كله.

ـ هذا الأخضر..

ـ هذه القطعة طولها أربعة أمتار.. إن كنت تريدها أنزلها لك.

أربعة أمتار أو خمسة لا فرق.

جماعتي يتحدثون فيما بينهم.. هل تكفي الأمتار الأربعة أم لا تكفي..

كان السيد البائع يبيعنا عقولاً.

ـ إذا جعلتم طرفها (كالوشا) بابوجاً تكفي.

ـ سنخيط بيجاما للأطفال.

ـ جميل جداً.. لتكن ساقه قصيرة بعض الشيء.. فالزي الدارج هذا العام القصير.

شعرت أنه متضايق من انتظارنا.

ـ لا تدعوني أنتظر هكذا يا سيدي.. كل الناس يريدون الشراء. من أية قطعة أو لون تريد؟

ماذا نفعل..؟ السيد البائع وضعنا في خانة (اليك).. فطلبنا منه أن يقص لنا خمسة أمتار من اللون الأسود.. كنا مجبرين.. وكما هي العادة في باقي المحلات.. يقول البائع عند قطع القماش (مبروك) أما بائع البضاعة الوطنية فكان يقص القماش بعصبية (جارت) دون استعمال المقص.. وقدم لنا إشعاراً يعطى للصندوق.

ـ اذهب إلى الطرف المقابل.

ـ في الطرف المقابل يضعون الخاتم عليها.. ويضعها لمن قربه وهذا بدوره إلى السيدة التي تقطع الورقة إلى نصفين.. أعطتنا نصفاً.

حملنا الورقة إلى السيدة الأخرى.. فقالت:

ـ الساعة الآن الثانية عشرة.. حان وقت الانصراف.. تأتون بعد الظهر.

ـ آمان بالله عليك يا سيدتي جئنا من أقاصي الدنيا.. من (رامي).. فلا تؤخرينا.. ركبت العائلة والأولاد بالحافلة.. وأرسلتهم إلى المنزل.

ـ عند الساعة الثانية كان المصطفون قد وصلوا إلى الباب.

لما جاء دوري.. قطعت الورقة الوردية.. وقالت:

ـ عشر ليرات وخمسة وستون قرشاً.

ـ أعطيتها اثنتي عشرة ليرة ونصف.

ـ أعطني فراطة..

ـ لا يوجد معي.

ـ اصرفها يا سيدي.. هذا المحل ليس محل صرافة.

خرجت من المخزن.. بائع السجائر لا يصرف.. وبائع الجرائد كذلك. اشتريت قطعة من الشوكولا بتسعين قرشاً.. فصرفوها.

أعطيتها المبلغ.. أعطتني فاتورة.. وضعوا عليها الختم مرة أخرى.. أعطيت الفاتورة المختومة لشخص آخر.. وأعطوني البضاعة.

فيما كنت خارجاً من الباب.. كان الجالس قرب المدفأة يقول:

ـ يشترون البضاعة من عندنا ويبيعونها في السوق السوداء.. الحسنة حرام مع هذا الشعب.. لو كنت مكان الحكومة....

وبما أنني خرجت من الباب لم أسمع بقية كلامه.

جئت إلي البيت.. فتحوا العلبة بفرح وسرور.. إنه أمر محير.. لقد أعطونا قماشاً غير الذي اشتريناه. بدل أن نشتري خمسة أمتار من (البازن) اشترينا ثلاثة أمتار من (التولبنت).

ο ο ο

مزاد على بضاعة أمريكية

جاءني في الصباح الباكر وقال:

ـ ألم تتحرك من فراشك بعد؟

قلت:

ـ الطقس بارد جداً.. وليس عندي مدفأة.

ـ اشرب شاياً ساخناً.

ـ قطعوا الغاز عن بيتي.. ثم لا شاي عندي ولا سكر.

ـ عرفت.. أنت لن تصبح بشراً مطلقاً.. أتريد أن أجعلك غنياً في لحظة واحدة؟

ـ يا حبيبي.. اذهب إلى عملك أفضل.. فروحي وصلت حتى رأس أنفي.

ـ أتحدث معك بجدية.. سأجعلك غنياً خلال عشرة أيام.

ادع لي.

الآن أستطيع أن أقص عليكم الحكاية بكل راحة.. سمعت كلام كمال.. وقصدنا منزل أبي.. وبسبب من الأسباب أخرجنا الجميع إلى الشارع.. أي خرجوا من البيت.. جاء بشاحنة وأوقفها أمام باب البيت.. نقلنا كل الموجودات القديمة والخردة في منزل أبي إلى السيارة.. ووضعناها في منزلي. عندما عاد أبي إلى البيت ظن أن سارقاً دخل بيته.. وأصبح في حيرة من أمره.. ولكن من الذي سيستمع إليه. في اليوم التالي ظهر على صفحات الجرائد.. الإعلان الذي أعطاه كمال ويقول:

«بيع أغراض أمريكية

بمزايدة علنية

الرقيب المتخصص المستر (أرنولد باي) سيبيع أغراضه الأمريكية القيمة بمزاد علني بتمام الساعة العاشرة من صباح الأحد الواقع في ٣١ تشرين الأول/١٩٥٤/».

بتاريخ المزايدة.. لم أر شبيهاً للازدحام الذي كان في بيتي.. لا في السينما ولا المسرح ولا في أية حفلة موسيقية. السيارات الخاصة ملأت الشارع والأرصفة وامتلأ البيت ولم يعد يتسع لأحد.. نساء ورجال على مستوى الهوانم والبكوات. إحدى الهوانم كانت تلبس فروة سعرها يضاهي سعر كل موجودات وأمتعة بيتي بما فيها أنا شخصياً.. ما توقعت هذا أبداً.. قلت لكمال:

ـ والله تبهدلت.

قال:

ـ انظر من الذي سيتبهدل.

بدأت المزايدة. كان كمال نفسه يقوم بدور الدلال.. بدأ بالصراخ وسط البيت:

ـ زوجان من الديوانات موقعتان بإمضاء (كروهلر) وستة قطع من الكراسي.

وحقيقة لم يكن عدد الكراسي التي أحضرها من بيت أبي ست كراس بل ست قطع. قال كمال:

ـ أيها السيدات والسادة.. غرفة نوم بإمضاء (كروهلر).. طقم الظريف للمستر (أرنولد باي) بخمس عشرة ألفاً.

حسبت أن قهقهة ستنطلق الآن.. وإذا بصوت ناعم يقول:

ـ خمس عشرة ألفاً وخمسمائة ليرة.

ـ ست عشرة ألفاً.

ـ سبع عشرة.

ـ عشرون.

نظر كمال إليَّ بطرف عينه..

ـ أين يا سيدي..؟ هل من يزيد..؟ عشرون ألفاً.. هذه بضاعة أمريكية خاصة أبيعها.. بعتها..

بيعت كراسينا القديمة بعشرين ألف ليرة.. لو بعناها لبائع المستعمل ما اشتراها منا بعشرين ليرة.

يتحدث كمال بطلاقة:

ـ طقم غرفة الطعام البلاستيكية الظريفة للسرجنت أرنولد. هل من طالب لهذه الغرفة الأمريكية الرائعة.. تسعة آلاف ليرة.

ـ عشرة آلاف.

ـ إحدى عشرة لي.

طاولة قهوة مكسورة الرجل.. وزوج من الحصر.. وكرسي من الخيزران وثلاث كراس خشبية.. كانت المزايدة تعلو ألفاً فوق ألف. وإذا بسيدة محتشمة (مجلا.. معلا) دخلت البيت.. سألت عن الكراسي التي بيعت قبل قليل.

قالوا:

ـ بيعت.

ـ واه.. واه.. واه.. يا حرام.. من الذي أخذها..؟

ـ السيدة سناء.

ـ أرأيتم.. لقد اشترت هذا الطقم تحدياً لي.. سأشتري هذا الطقم طقم الطعام.. كي تنفجر من غيظها.

صاحت فجأة وكأنها تستغيث (حريق.. النجدة) وقالت:

ـ عشرون ألفاً.

السيدة سناء التي سمعت صوتها قالت:

ـ إحدى وعشرون ألفاً.. معي.

قال الرجل الذي يقف إلى جانبها بخوف:

ـ يا زوجتي لا تساوي ما تدفعين.

ـ ماذا تقول..؟ لا تساوي..؟ بالله عليك يا غالب.. ما عندك ذوق أبداً. يا عيني هذه الأشياء استعملها أمريكي متخصص.. ثلاثة وعشرون ألفاً.

ـ خمس وعشرون.

وربما كمال أشفق عليهن فقال على الفور:

ـ خمس وعشرون.. بعتها.. بعتُ..!

وإلا فإن مائدتنا العرجاء كانت ستباع بمئة ألف على الأقل.

ـ أيها السيدات والسادة.. لمبة ب (أولترماتيك).. ألف.. لم يكن في بيتنا مثل هذا الشيء.. كان كمال قد علق بطرف بستون أبي مزهرية أو أصيصاً عادياً.. بيعت بثلاثة آلاف وثمانمئة ليرة. قالت السيدة التي اشترت اللمبة:

ـ آمان.. ستليق بصالوننا..

الرذالة الأساسية بدأت بالفرش.. عندما رأيت قذارة وجه الفراش.. أشحت بوجهي صوب الجدار.. لأن كمال أخرج الفرش المرقعة للبيع:

ـ فرش هوليود.. أغطية كاوتشوكية.. بألفين وخمسمائة ليرة.

ـ ثلاثة آلاف.

ـ ثلاثة آلاف ومائتين.

بيعت الفرشات بخمسة آلاف ليرة.. بعد أن تم بيع الأغراض التي أحضرناها من بيت أبي.. بعنا أغراض منزلي أيضاً.. ليس الأغراض فقط حتى والثياب أيضاً.. ولم يبق شيء.. بالرغم من ذلك لم يترك المكان أي منهم. اقترب مني كمال واقتادني إلى البانيو وقال:

ـ هيا اخلع ثيابك.

ـ ماذا سيحدث..؟

ـ هيا اخلع ثيابك بسرعة سأبيعها كلها.. ثم نذهب ونشتري الجديد.

خلعت كل ما على جسمي من ألبسة.. بقيت عارياً.. أغلق كمال باب الحمام وأقفله.

كنت أسمع صوته من الداخل:

ـ أيها السيدات والسادة المحترمون.. هذا بنطال الأمريكي المتخصص.. مزركش من ركبتيه.. من (اللاستيكيون) الخالص.. بنطال ظريف.. خمسمائة ليرة.

ـ ستمائة.

ـ سبعمائة.

جاء الدور للألبسة الداخلية:

ـ سروال الرقيب أرنولد.. لم يلبسه سوى مرة واحدة.. خمسون ليرة.

سمعت صوت امرأة:

ـ الحقيقة لا يساوي خمسين ليرة.. لو أنه لبسه أكثر من عشر مرات

لدفعت خمسمائة ليرة.

ـ أيها السيدات والسادة.. مناديل مستر أرنولد.. ثلاث ليرات.

ـ خمس ليرات.

ـ سبع..

ـ عشر ليرات أفندم.. أبيعها.. بعتها.. المزايدة العلنية انتهت يا أفندم.

جلبة قوية في الخارج.. كان كل واحد يحمل أغراضه التي اشتراها. بعد نصف ساعة عمَّ السكون.. سمعت صوت كمال خلف الباب:

ـ ربحنا مائة وسبعاً وأربعين ألف ليرة.

صرخت من الداخل:

ـ عاش كمال..! افتح الباب بسرعة.. أنا على وشك أن أجمد.

ـ انتظر بعض الوقت لأشتري ألبسة داخلية وخارجية.

ذهب كمال.. انتظرت ساعة وساعتين.. كنت أرتجف من البرد.. أدخلت يدي بين فخذي.. وبدأت أرقص.. حل الظلام وما من أثر لكمال.

أنا الآن داخل الحمام.. وعلى وشك أن أتجمد من البرد.. إن كسرت الباب وخرجت.. سيقولون إني مجنون ويقبضون علي.. وسأهان. لو كان في الحمام غاز لانتحرت.. أكتب هذه الكلمات في الحمام. ماذا حصل لكمال يا ترى..؟! هل بقي تحت الترمواي أم تحت الحافلة..؟ وربما حصل له شيء ما. والحقيقة.. كمال صديق مخلص جداً.

المحتويات

المجانين الهاربون ٥
المفتش قادم ٢٧
مرض البوسفور . بوغاز إيجه ٤٤
الحيوية.. النظام ٥٣
صدر كتاب السيد حسن ٦٤
المسدس المسروق ٧٢
مع الأسف لايصير ٨٠
في إثر البندورة ٨٨
كلهم كانوا بناة مصلحين ٩٤
الكلب المحترم ١٠٠
زر البنطال ١١١
اشتري القديم (المستعمل البالي) ١١٧
لولا وجود الذباب ١٢٥
مباع ١٣١
الوحدة (البقاء وحيداً) ١٣٩
الروايات والقصص المترجمة ١٤٥
طفل ١٤٨
من رجولته أو شجاعته ١٥٣

حكايتنا جميعاً ١٦٠
حارس باتابير ١٦٦
الشكر لله ١٧٢
المتن العريض لكتاب الوالي ١٨١
اشتريت قماشاً وطنياً ١٨٦
مزاد على بضاعة أمريكية ١٩٣

يا بني: إذا ناديت بالديمقراطية فأنت من السياسيين العصاة الذين يجب تكسير رؤوسهم.

وإذا دُعيت لإلقاء خطاب في مناسبة وطنية، يجب أن يعلو صراخك ويطغى سعالك على كلامك، حتى لايفهم أحد مواقفك السياسية.

وإذا أردت أن تكون كاتب قصة أو رواية، عليك ارتياد الملاهي والمقاهي والثرثرة، ومهاجمة الـ .....، ولا تترك مجال الكلام للجالسين معك.

وإذا أصبحت مديراً لإحدى الشركات عليك هدم كل ما فعله سلفك لتظهر أمام الموظفين بالمدير البنّاء.

وأخيراً يا بني:

إياك أن تعمل كثيراً في حياتك الوظيفية، لأن من يعمل كثيراً يتعب كثيراً ويرتكب الأخطاء، وتطاله الشتائم، ونهايته الطرد من العمل والسجن.

مجموعة أقاصيص ساخرة ممتعة.

الناشــــر

السعر 200 ل.س